البنية الحجاجية في خطبتي زوج عثمان بن عفان وابنته عند مقتله وفق منهج «بيرلمان»، و«تيتكاه»

د. موزة حمد سالم الكعبي[1]

(قدم للنشر في ٢٣/ ١٠/ ١٤٤١هـ؛ وقبل للنشر في ١٨/ ٠٢/ ١٤٤٢هـ)

المستخلص: يكشف هذا البحث عن آلية وتركيبة الحجج للإقناع والتأثير في المتلقي في خطبة «نائلة بنت الفرافصة» وعائشة بنة عثمان ﷺ من طرائق انفصالية أو اتصالية. وقد سلك هذا البحث المنهجية التداولية الحجاجية وفق تقنيات «بيرلمان»، و«تيتكاه»؛ لتصفها من حيث طرائقها في الخطبتين. وكان من أهم النتائج التي خرج بها البحث أنه على الرغم من هول المصيبة وقرابتهما من المغدور به الصحابي الجليل عثمان بن عفان ﷺ فقد أُبتنيت الخطبتان على تقنية حجاجية ثرّية، تعددت فيها الأساليب من طرائق فصل المترابطات أو ربط المتباعدات، على روابط منطقية أو شبه منطقية، معتمدة على بنية الواقع أو لبنية الواقع، أو عبر إسقاطات تاريخية تتفاعل في بنية النص، فتزيد من قوة إقناع المتحدث. كما أن البنية الحجاجية في الخطبتين حملت خطابًا مباشرًا للمتلقي ورسائل غير مباشرة؛ مما أدّى إلى تعدّد الأصوات الحوارية في الخطبتين، لتتوصل بعدها إلى أن الخطبتين دارتا حول قطب جدليتيّ (العصيان - والطاعة)، و(الشدّة - اللين)، وبيان ما يترتب على طغيان أحدهما على الأخرى مع جماعة متنمرة متمردة لا تبتغي للحق سبيلًا. وبما أن الحجاج له دورٌ فاعلٌ في الأزمات، وأن محاورة المخالف بمنطقيات وأبجديات لها أثرٌ كبير؛ لذا نرى أننا في حاجة إلى دراسة المزيد من نظريات الحجاج والبلاغة الجديدة، ولاسيما أننا نعاني من شحٍّ في التطبيقات لهذه النظرية على تراثنا وحاضر نصوصنا، فنحن بحاجة إلى قراءة التراث لا وفق ما قرأه القدامى وفق معطيات عصرهم، بل وفق معطيات قراءات عصرنا الحالي.

الكلمات المفتاحية: الحجاج، تقنية، بيرلمان، طرائق انفصالية، طرائق اتصالية.

***

(١) أستاذ مساعد في الأدب والنقد، جامعة حفر الباطن.

البريد الإلكتروني: Mhsk1434@gmail.com

The argumentation structure in sermon of the wife of Othman and the daughter of Othman - may God be pleased with him - upon his death According to the approach of "Perelman" and "Tyteca" model

Dr. Mozah hamad alkaabi

(Received 15/06/2020; accepted 05/10/2020)

Abstract: This research reveals the mechanism and structure of arguments for persuasion and influence on the audience in the sermons of "Naila bint Al-Farafisa" and Aisha, the daughter of Uthman, may Allah be pleased with them, utilizing either dissociative or associative techniques. The research follows the rhetorical and argumentative methodology, employing the techniques of "Perelman" and "Toulmin" to analyze the sermons in terms of their methods. One of the significant findings is that despite the magnitude of the tragedy and their proximity to the slain companion, the noble Uthman ibn Affan, may Allah be pleased with him, the two sermons were built upon a rich argumentative technique. Various methods were employed, including separating interconnected elements or linking distant ones, using logical or quasi-logical connections, relying on the structure of reality, or through historical references that interact within the text structure, enhancing the speaker's persuasive power. Additionally, the argumentative structure in the two sermons presented both a direct discourse to the audience and indirect messages, leading to a diversity of dialogical voices. Consequently, the sermons revolved around two contrasting poles: (disobedience vs. obedience) and (rigidity vs. gentleness), highlighting the consequences of the dominance of one over the other, along with a rebellious group that does not seek a path to truth. Since argumentation plays an active role in crises, and engaging opponents with logical and rhetorical strategies has a significant impact, there is a need for further study of argumentation theories and modern rhetoric. Particularly, there is a shortage of applications of these theories on our heritage and the present context of our texts. Thus, there is a need to interpret the heritage not only in line with the interpretations of the ancients based on their era but also based on the considerations of our current era.

Keywords: Argumentation, Technique, Perelman, Dissociative Techniques, Associative Techniques.

❊ ❊ ❊

المقدمة

*** التعريف بالموضوع:**

موضوع البحث هو: البنية الحجاجية في خطبتي زوج عثمان وابنته ﷺ عند مقتله وفق منهج «بيرلمان»، و«تيتكاه».

الحجاج والمحاججة مصدر للفعل (حاجّ)، وورد في المعاجم العربية، ومنها لسان العرب: حاججته أحاججه محاجًّا ومحاججة حتىٰ حججته: غلبته بالحجج التي أدليت بها[1].

وقد أصبح الحجاج اليوم نظرية، تؤطرها قوانين وقواعد، تضطلع بتحديد وظائف التقنيات اللغوية التي تحمل المتلقي علىٰ الإذعان والاستجابة بما يعرض عليه، ورفع مستوىٰ حجم الإقناع. وقد تعددت اتجاهات الحجاج في عصرنا الحالي، فيوجد اختلاف في تعريف الحجاج في البلاغة الجديدة؛ إذ يرىٰ «شاييم بيرلمان»، و«تيتكاه» بأنه: «دراسة التقنيات الخطابية التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلىٰ التسليم بما يُعرض عليها من أطروحات أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم»[2]. فلا شك في أن «الحجاج عندهما خطاب واعٍ يرتكز في أساسه علىٰ مُنتِج الخطاب وعلىٰ مدىٰ قدرته لبناء نص حجاجي من خلال توظيف للآليات الحجاجية المختلفة. فهو يحمل طابعًا جدليًا بين الباث والملقي وفق تقنيات معينة، يحاول بواسطتها كلٌّ منهما إقناع الآخر، وإفحامه بحجج منطقية عقلانية»[3].

في حين يرىٰ «ديكرو»، و«أنسكومبر»: بـ«أن الحجاج يكمن في اللغة، وليس فيما يكمن من منطق رياضي، أو شكلي، أو صوري كما ذكر «بيرلمان»، و«تيتكاه».

---

(١) لسان العرب محمد بن مكرم بن منظور، (٢/ ٢٢٦) وما بعدها.

(٢) نظرية الحجاج دراسة وتطبيقات، عبدالله صولة، (ص١٣).

(٣) البينة الحجاجية في قصة سيدنا موسىٰ عليه السلام، الجزائر امحمد عرابي، (ص٤).

*** حدود الدراسة:**

من حيث النظرية فهي تتبع نظرية «بيرلمان»، و«تيتكاه»، وما أقرّاه في الحجاج؛ إذ سمّياه البلاغة الجديدة.

ومن جهة النص: فالنص الأول هو: خطبة لزوج عثمان ﷺ بعد مقتله ودفنه.

والنص الثاني هو: خطبة ابنته عائشة حين استقبلت بها عليًّا - ﷺ أجمعين - وهو قادم إلىٰ المدينة بعد مقتل أبيها بوقتٍ غير بعيد

*** أهمية الدراسة:**

وتنطلق أهمية هذه الدراسة من أهمية الحجاج في حياتنا اليومية من دحض للخصوم وإيصال للفكر والرأي وتعزيز للأمن الفكري عبر أداة الحجاج اللغوي خاصة وأن هذه الدراسة انتهجت منهج البلاغة الجديدة، كما أسماه «بيرلمان»، و«تيتيكاه» في مصنفهما البلاغة الجديدة في عام ١٩٥٨م، «وتستمد هذه النظرية آلياتها الإجرائية من المفهوم العام للحجاج، فهو طريقة تحليل واستدلال علىٰ كلام ما؛ بهدف تقديم مسوغات مقبولة للتأثير علىٰ المعتقد والسلوك»[1]، والحمل علىٰ الإذعان بشكل يدفع إلىٰ العمل المطلوب؛ لـ«ذلك يقتضي أن يكون لها إستراتيجية لغوية ذات بُعدٍ معرفي من الأطراف الرئيسة في العملية التواصلية؛ إذ لا بدّ للمتكلم أن ينقل تصوراته ومدركاته إلىٰ المستمع بقصد الإبلاغ، والإخبار مع حتمية الإقناع، بناءً علىٰ مراعاة الظروف المقامية»[2]؛ لذلك فهي أنسب للظرف المقامي الذي طُرحت فيه الخطبتان.

وتزداد أهمية الدراسة لتناولها لنصيين مهملين لم يتطرق لهما بالشرح والتفصيل علىٰ الرغم من كفاءتهما اللغوية، وأهميتهما التي تبين دور المراءة المركزي وقوة فصاحتها.

---

(١) البلاغة والاتصال، جميل عبدالمجيد، (ص١٠٧، ١٠٨).

(٢) حجاجية اللغة عند عبدالقاهر الجرجاني، محمد يزيد سالم وعبدالسلام عابي، الجزائر، مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب جامعة محمد بوضياف المسيلة، (ص٢٦١).

*** مشكلة البحث:**

لا شك في أن هذه الدراسة تجيب عن عدد من الإشكاليات التي تواجه الباحث:

- أنماط الحجاج وتطويعه للغة، وتسخيرها في تقنيات حجاجية في خطبتي زوج عثمان وابنته ﷺ.

- دلالات البنية الحجاجية وأبعادها في خطبتي زوج عثمان وابنته ﷺ وطريقة تجلي تلك الدلالات.

*** أهداف البحث:**

- اكتشاف طرائق البنية الحجاجية للخطبتين من طرائق انفصالية، أو اتصالية، وما يتعلق من ذلك بالمستمع المتلقي.

- الخروج برؤية عن آلية الحجج، وتركيبتها في الإقناع والتأثير في المتلقي في خطبة نائلة بنت الفرافصة، وعائشة بنة عثمان ﷺ، واستنتاج ما دارت عليه موازين الخطبتين من ثنائيات لفظية ومعنوية لها أبعادها في مفاهيم ورسائل مباشرة، أو غير مباشرة للمتلقي.

- تناول مصطلحات نظرية البلاغة الجديدة «الحجاج» الغربية، وربطها وفق منهجية «بيرلمان»، و«تيتكاه» بالسياق العربي، وتراكيبه.

*** الدراسات السابقة:**

لم أعثر علىٰ دراسة تناولت الخطبتين، كما لم أعثر علىٰ دراسة تطبيقية لنصوص خطابية ارتكزت علىٰ تقسيمات بيرلمان وتقنياته، من جهة الطرائق الانفصالية أو الاتصالية في الخطب بوجه عام - حسب علمي -، وأكثر الدراسات الحجاجية اتكأت علىٰ طريقة السلالم الحجاجية، أو الحجاج البلاغي وفق مصطلحات النقاد القدامىٰ ومفاهيمهم.

*** منهج البحث:**

اتبعت هذه الدراسة المنهج التداولي الذي هو «مجموعة من البحوث المنطقية اللسانية...

وهي الدراسة التي تهتم بقضية التلاؤم بين التعابير الرمزية اللسانيات المرجعية والمقامية والحديثة والبشرية»[1] فالتداولية تدرس اللغة وفق استعمال أهلها والمقام الذي قيلت فيه والحجاج طريقة من طرق التواصل البشرية وأحد، وغايتها الاستمالة والإقناع اللذان يقومان علىٰ بنية لغوية تواصلية إقناعية، وللحجاج الحديث مسارات عدة، وقد اختيرت نظرية الحجاج وفق رؤية «بيرلمان»، و«تيتكاه».

*** خطة البحث:**

اشتملت هذه الدراسة علىٰ مقدمة وخاتمة، بينهما ثلاثة مباحث، تضمنت المباحث عددًا من المطالب.

- **المبحث الأول: تأطير النص.**
  - أ- الإيتوس (الصفات المتعلّقة بالمتكلّم)، الباثّ والمتكلم.
  - ب- الباتوس (التأثير في الآخر) المتلقي.
- **المبحث الثاني: البنية الحجاجية ذات الطرائق الاتصالية.**
  - أ- الحجج المؤسسة علىٰ شبه المنطق، قسّمها «بيرلمان» إلىٰ:

١- التناقص والتعارض.

٢- التماثل والحد.

٣- التبادلية.

٤- التعدية.

٥- الرياضية.

  - ب- الحجج المؤسسة علىٰ بنية الواقع، وقسّمها إلىٰ:

١- السببية.

(١) التداولية من أوستن إلىٰ غوفمان، فيليب بلانشيه، سورية، (ص١٨، ١٩).

٢- التعايشية.

- ج- الحجج المؤسسة لبنية الواقع، وقسمها «بيرلمان» إلىٰ:

١- الحجة بالشاهد.

٢- الحجة بالمثال.

٣- تأسيس الواقع بالتمثيل.

٤- تأسيس الواقع بالاستعارة.

- **المبحث الثالث: البنية الحجاجية الانفصالية:**

وتقسيماته ليست كما الحجاج الاتصالي وإنما هي حدود للواقع والظاهر.

* * *

المبحث الأول
تأطير النص

لاشك في أن أي نص يتكون من متحدث (الإيتوس) ومتلقٍ (الباتوس) وسياق نصي خطابي (اللوغوس).

أ- الإيتوس (الصفات المتعلّقة بالمتكلّم) الباث أو المتكلم، ولم يعرف هذا المصطلح اتفاقا في تحديد ماهيته فقد عني عند بعضهم أخلاق الخطيب وعند آخرين الوصف الخلقي له وعند آخرين الصورة أو السمت، ويستعمل بمعنىٰ العادات الخطبية، ونستنتج بأنه «يعني ظاهرة متعددة من الأبعاد والدلالات، وقد احتل (الإيتوس) عند أرسطو في كتابه «فن الخطابة» ركنا حجاجيا هاما، فقوة (الإيتوس) تؤثر إيجابا علىٰ إقناع للجمهور»[1]، وفي العصر الحديث «انفتحت اللسانيات الحديثة علىٰ الذات المتكلمة حين أعادت الاعتبار إلىٰ المتكلم ذاتا تسكن اللغة وتترك أثارها وبصماتها عبر علامات لغوية تعبيرية منوعة»[2]، بل حتىٰ علامات بصرية وخَلقية، فمظهر الخطيب له دور في ممارسة الإقناع علىٰ الجمهور فللمتحدث «في النظرية البلاغية إستراتيجية حجاجية يسعىٰ المحاجج من خلالها إلىٰ توصيل صورة إيجابية عن المتلفَّظ بالخطاب»[3]، لنرىٰ أن «الإقناع لا يكون فقط عبر الأفكار فقط بل عبر الثقة التي يفرغها عليه الجمهور؛ نتيجة لتملكه ناصية الخطابة»[4].

(١) فن تحليل الخطاب، حاتم عبيد، (ص١٠٤)، الخطابة، أرسطو طاليس، عبد الرحمن بدوي، (ص٣٠).

(٢) تحليل الخطاب وفق استراتيجية الإيتوس في المشروع البلاغي لمحمد مشبال، غالم عبد الصمد، (ص١٣٣).

(٣) المرجع السابق، (ص١٣٣).

(٤) في خطابة أرسطو الباتوسية، محمد الولي، (ص٤٧).

ب- (الباتوس) (التأثير في الآخر) المتلقي، ويعد عنصرا أساسيا في العملية التخاطبية والتواصلية، إذ عده أرسطو ركنًا لأنواع الحجج الثلاثة حين ذكر أنه يقوم علىٰ أحوال المستمعين[1] أي سيكولوجية المتلقي فالخطيب لا يكون مقنعا إلا إذا حظِي بثقة الجمهور، فقد عدد أرسطو أنواع الباتوس[2] أو النزوع إلىٰ عدد من الحالات الانفعالية من غضب وسكون وكراهية، فالحجاج الجيد يقتضي معرفة بما يهز الذات التي يتوجه إليها الخطاب فالمخاطب (الباتوس) الحسود يتأثر باستمتاع الآخرين في النعم في حين أن المخاطَب السخي الكريم لن يشعر بهذا (خطابة أرسطو الباتوسية ٤٨، أرسطو)»[3]، إذ إن عملية التأثير في المتلقي تتوقف من جانب آخر علىٰ موقع المتلقي من هذه العملية، ولقياس ما إذا كان يطرحه الخطيب مفيدًا من أفكار وقناعات وتراكيب لغوية فعلينا البحث عن الاتفاقات والسنن المشتركة التي سيقوم عليها الحجاج، تحت مبدأ إن الخطاب ما هو إلا جواب لسؤال مفترض في ذاته، وموجه لجمهور متلقٍ حسب مايراه «ميشال مايير» الذي رأىٰ أن النشاط الخطابي ليس إلا مسارا للمساءلة، فقد عدَّ أركان الخطابة ثلاثا: الأخلاق والسؤال والجواب، والأخيران يمثلان الاستشكال والمساءلة أي وجود سؤال مفترض في الحجاج يستدعي استشكالا تخرج منه أجوبة متعددة مما يصنع حوارًا بين(الإيتوس) و(الباتوس)يتضمن استمرارية الحجاج عبر سلسة حوارية «تلغي الطرائق الحوارية وتنتج طرائق متنوعة تتلاءم والوضع التواصلي المطلوب من عمليات الإقناع والتأثير»[4]، فالناظر إلىٰ «نوازع المتلقين يراها ليست بسبائك معدنية، إذ بإمكان الخطيب أن

(١) في خطابة أرسطو الباتوسية، محمد الولي، (ص٤٧).

(٢) الباتوس هو ما ينزع إليه الإنسان نزوعا طبيعا، خطابة أرسطو الباتوسية، محمد الولي، (ص٤٨).

(٣) خطابة أرسطو الباتوسية، محمد الولي، (ص٤٨).

(٤) نظرية المساءلة والبلاغة لميشال مايير مقاربة في الأصول والأسس والتمثلات، نعمة دهش فرحان، (ص٤، ٥، ١١، ١٩).

يعبث بها كيفما يشاء فيتمكن من قلب العواطف والاختيارات من النقيض إلىٰ النقيض»[1].

ج- اللّوغوس (الخطاب، أو اللّغة، أو العمليات الاستدلاليّة العقلانيّة داخل الخطاب)، وهو صلب دراستنا، فهذه العناصر لا تخرج عن الطرح الذي قدّمه بيرلمان انطلاقًا من التّصور الأرسطي[2].

وبما أن هذه الدراسة هدفها البنية الحجاجية (اللوغوس) وفق رؤية بيرلمان فإن هذا المبحث الأول سيكون بمثابة عتبة للمبحثين الآخرين حتىٰ لا تضل هذه الدراسة غايتها ويطول حديثها في رؤىٰ متعددة لأن رؤية بيرلمان ذاتها ليست بالقصيرة، كما أن بيرلمان وتيتكاه وإن قدما تصورا جديدا للبلاغة في حجاجها غير أننا لا نجد الجديد والمفصل عن (الإيتوس) و(الباتوس) كما في (اللوغوس)[3] مما يجعلنا نكتفي بإشارات عابرة لهما فقد اختططنا منهجهما في هذه الدراسة.

أولًا: نص نائلة بنت الفرافصة:

ألقت خطبتها بعد وفاة عثمان ﷺ ودفنه في المسجد النبوي في العام ٣٥هـ[4].

أ- قائلة النص(الإيتوس):

اسمها: **نائلة بنت الفرافصة** بن الأحوص بن عمرو بن ثعلبة بن الحارث الكلبي، ولدت من عائلة مسيحية في الكوفة، واعتنقت الإسلام لاحقًا علىٰ يد أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر زوج رسول الله، في العام (٢٨) للهجرة - ﷺ أجمعين - تزوجت من عثمان بن عفان ﷺ[5].

---

(١) خطابة أرسطو الباتوسية، محمد الولي، (ص٤٩).

(٢) تاريخ نظريات الحجاج، فيليب بروتون، جيل جوتييه، (ص٤١، ٤٢).

(٣) فن تحليل الخطاب، حاتم عبيد، (ص١٠٤).

(٤) بلاغات النساء وطرائق كلامهن وملح نوادرهن وكلام ذوات الرأي منهن، أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر ابن طيفور، (ص٧٠).

(٥) الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي الدمشقي، ٢٠٠٢م، (٧/ ٣٤٣).

وقد كانت شاهدًا علىٰ مقتل عثمان، بل إنها شاركت في الدفاع عنه ﷺ، فقُطعت أناملها، ورمت نفسها علىٰ عثمان ﷺ، لمنع قطع رأسه بعد قتله دون جدوىٰ، فحزوا رأسه، ومثَّلوا به، لتترُك جثة عثمان مكانها دون أن يجرؤ أحد علىٰ تجهيزه ودفنه ﷺ، فأرسلت إلىٰ حويطب بن عبدالعزىٰ، وجبير بن مطعم، وأبىٰ جهم بن حذيفة، وحكيم بن حزام، ﷺ؛ ليُجَهِّزُوا عثمان ﷺ، فكان رأيهم بتجنب الخروج نهارًا، وحين حلّ الظلام خرجوا به بين المغرب والعشاء نحو البقيع، وهي تتقدمهم بسراج، ينير لهم حتىٰ دُفِن بعد أن صلَّىٰ عليه جبير بن مطعم، وجماعة من المسلمين - ﷺ أجمعين -[1].

أما عن **الفضاء الزماني** للمتحدث (الإيتوس) فمن المعلوم أن دفن عثمان ﷺ بعد ثلاث ليال من قتله، وقد ألقت خطبتها هذه بعد دفنه مباشرة. ومن المعلوم أن المقام الخطابي للنص خُلِقَ في جوٍّ بالغ الحزن لزوج مكلومة شهدت وفاة زوجها، ولم تكن وفاة عادية لزوج فقدته ﷺ[2].

أما الفضاء المكاني للمتحدث (الإيتوس) فقد اختارت المكان مسجد رسول الله ﷺ؛ لما للمسجد من حرمة وعظمة، وإجماع المسلمين علىٰ ذلك. واختارت أيضًا أن تكون في وسط مجموعة من أهلها، بكونه نوعًا من الاستقواء الذي تتخذه امرأة فقدت زوجها العظيم، فضلًا عمّا سعت إليه نائلة ﷺ من حشد جمهورها عبر صويحباتها حتىٰ اجتمع لها خلق كثير؛ مما ينبئ بخطابٍ جماهيري، فيه كثير من الصراع الفكري والسياق المحاجج.

فمقام الإيتوس هنا تواصلي، فهو مباشر مع الجمهور، فهي في مكان عام، والبداية كانت مقام تفجع وتوجع علىٰ زوجها المغدور به فظهرت بمظهر الحزن ولا أدل من ذلك من رثاثة المظهر، وكانت متسترة، فالستر ظاهرة يحترمها الجمهور ويجعلها محط ثقة، لتنتقل إلىٰ مقام

(١) البداية والنهاية، عماد الدين أبي الفداء ابن كثير، (١٠/ ٣٢١)، تاريخ الرسل والملوك: محمد بن جرير الطبري، (٤/ ٣٩٢-٣٩٣).

(٢) ينظر: البداية والنهاية، لابن كثير، (١/ ١١).

اللوم والتقريع والتذكير بالنهاية للمتمردين، فإذا كان الخطاب يشكل صورة عن الخطيب بطريقة مباشرة أو غير مباشرة فحديثها عن الثكل في بداية الحديث ونهايته يدل علىٰ أن المقام في الخطبة يدور حول ذات الخطيب المرملة حيث يطغىٰ علىٰ جو الخطبة، وكأنه جواب علىٰ سؤال يصنعه المقام التواصلي مع المتلقي (الباتوس) عن سبب هذا الحزن، لتدور الخطبة حول هذا الإشكال، وهو سبب شخصي لفقد عزيز وسبب اجتماعي عام حول فقد الأمة لخليفة عظيم، وما سيدور بعد ذلك من تشرذم وضياع للشمل، وهنا تكمن أهمية طرحها فما ذكرته بين بداية الخطبة ونهايتها هو إقناع لشدة حزنها وإن كان لا يخلو من اللوم.

ب- أما المتلقي ونوازعه (الباتوس) فمن خلال ما قدّمه ابن طيفور[1] نجد أن المتلقي لخطابتها جمهور كونيٌ مفتوح[2] في المسجد، فهو لم يكن خاصًّا، كما كان عند جمهور خطابة عائشة بنة عثمان لعلي - رضي الله عنهم أجمعين -، فجمهورها إذن مباشر، وليس افتراضيًا، فجمهور الخطبة مختلف حسب قراءتي للمشهد في المدينة وقت مقتل عثمان رضي الله عنه؛ إذ عجّت المدينة بأولئك المتمردين، فبلغ عددهم ألفين[3]. فينبغي أن يكون جماعة منهم في المسجد. ولا ننسىٰ أن تعاطي الصحابة ومن كان في المدينة كان متباينًا، وإن لم يكونوا ضد مقتل عثمان رضي الله عنه. وكما ذكر العمري أن المستمع الكوني لا يعني التعتيم، بل المثالية، فهو خطاب يتجاوز المستمع الخاص، ونتجاوزه إلىٰ حدود أخرىٰ ممكنة دون تحديد، كظروف فيها التخويف والترهيب من قبل قتلة عثمان رضي الله عنه، فجمهور الخطبة الكوني ليس خدعة، ولا تمويهًا، بل هو يعزىٰ إلىٰ مبدأ التجاوز كما ذكر العمري[4].

(١) بلاغات النساء، ابن طيفور، (ص٧٠).

(٢) نظرية الحجاج دراسة وتطبيقات، عبدالله صولة، ط١، (ص١٣، ١٤).

(٣) التداولية والحجاج مداخل ونصوص، صابر الحباشة، (ص٧٠)، نظرية الحجاج دراسة وتطبيقات، عبدالله صولة، (ص١٣، ١٤).

(٤) البلاغة بين التخييل والتداول، محمد العمري، (ص٢٢٢).

فجمهور الخطبة مركّب، وحسب النظرية الحجاجية أن الجمهور المركب يحتاج إلىٰ جملة من الاستراتيجيات التي لا بدّ منها، و«تتمثل في التوسل بجملة من الوسائل التعبيرية؛ لذلك نجد أنها حرصت علىٰ أن تبدأ الخطبة ببدهيات متفق عليها»[1] منها:

١ - كفضل عثمان ﷺ لزواجه من ابنتيّ النبي ﷺ.

٢ - أنه ثالث الأصحاب؛ لذلك نجد أنها لجأت في بداية خطابها إلىٰ ما يقرّه العقل الجمعي للجمهور من مسلّمات لا اعتراض فيها: كاسم الخليفة، ولقب ذي النورين، ولما لهذا اللقب من تأثير في النفوس. ومن أجل أن تضمن سيادة خطابها؛ كشفت هذا في ظاهر حديثها، قاطعة بالظلم الذي وقع علىٰ عثمان ﷺ؛ مما يكسب خطابها سطوةً وتأثيرًا.

فبما أن الخطاب كان موجها لمتلقٍ نوازعه ثورية متمردة فلا بد من الحديث عما يهز وجدان المتلقي(لباتوس) فالأنسب للثوري أن نتحدث عن اختلال الأمن والضياع، وهذا ما اتخذته نائلة في حجاجها تجاه المتلقي.

ثانيًا: خطبة عائشة بنت عثمان ﷺ:

أ- قائلة النّص (الإيتوس):

ولدت عائشة ﷺ في أواخر العهد النبوي من أبوين كريمين؛ فأمُّها: رملة بنت شيبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قُصي، وتزوجت عائشة بنت عثمان من الحارث بن الحكم، وأنجبت له ولدين هما: أبو بكر، وعثمان. ثم تزوجت بعده من عبدالله بن الزبير بن العوام[2].

وحين قُتل أبوها عثمان بن عفان ﷺ بكت كثيرًا، وظلّت علىٰ حالها حتىٰ عام المجاعة حين تولىٰ معاوية خلافة المسلمين عام (٤١هـ) وقَدِمَ معاوية ﷺ إلىٰ المدينة المنورة، وتوجّه

(١) نظرية المساءلة والبلاغة لميشال مايير مقاربة في الأصول والأسس والتمثلات، نعمة دهش فرحان، (ص١٣).

(٢) أعلام النساء بين عالمي العرب والإسلام، (ص١٥٩) وما بعدها.

إلىٰ دار عثمان بن عفان ﷺ ومعه رجال من قريش، فلما دنا من الدار ندبت عائشة أباها، وبكت، وقالت: «**وا أبتاه وا عثماناه، فقال معاوية ﷺ لمن معه: انصرفوا إلىٰ منازلكم، يرحمكم الله، فإن لي حاجةً في هذه الدار، ودخل معاوية مسكن عائشة بنت عثمان ﷺ، ثم أمرها أن تكفَّ عن البكاء، وعن مناداة أبيها، وقال يا بنت أخي، إن الناس أعطَونا طاعة، وأعطيناهم أمانًا، وأظهرنا لهم حلمًا تحته غضب،...**»[1]. ورغم أن هذا الحوار حصل بعد خطبتها (التي سنتناولها بالدراسة في هذا البحث)، فإنه يوضح نبرتها العاطفية، ونوازع ابنة عثمان من خطابتها السابقة، وهو الثأر[2].

أما **الفضاء الزماني** لخطبتها فيصعب تحديده؛ لأنَّ الرواية التي ذكرها ابن طيفور أنها قِيلت حين قَدِمَ عليٌّ ﷺ إلىٰ المدينة دون ذكر للزمن، في حين ذكر ابن كثير أن عثمان قُتِل في يوم ١٨/ ١٢/ ٣٥هـ، وأنَّ عليًّا بويع في تاريخ ١٩/ ١٢/ ٣٥هـ؛ ولذا أرجح أن تكون الخطبة في اليوم التالي لمقتل عثمان ﷺ؛ أي في اليوم التاسع عشر[3]، ولاشك في أن لهذا الميقات الزماني أثر في حدة البنت المفجوعة بقتل الغدر لأبيها.

و**الفضاء المكاني** للخطبة غير معلوم، ويمكن تحديده في ناحية ما من المدينة، ولعلها ناحية المدينة من جهة ينبع، كما ورد في نص الخطبة عند ابن طيفور: «**كان علي بن أبي طالب ﷺ في ماله بينبع**»[4]. كما ورد في بعض كتب التاريخ أن المصريين المتمردين ألحوا البيعة عليه وعلىٰ بعض الصحابة ﷺ من قبله[5]. ولا شكّ في أن ابنة عثمان ﷺ لم تكن بالمخيَّرة لإلقاء كلمتها، بل جاءت وفق الموقف الذي يحدث، فعليٌّ ﷺ مقبلٌ، والناس ملتفَّةٌ حوله، ولم تختر الزمان

(١) البداية والنهاية، ابن كثير، (١٠/ ٣٢١)، تاريخ الرسل والملوك، الطبري، (٤/ ٣٩٢-٣٩٣).

(٢) أعلام النساء بين عالمي العرب والإسلام، عمر رضا كحالة، (ص١٥٩) وما بعدها.

(٣) البداية والنهاية، ابن كثير، دار الفكر، ب.ط، ١٩٨٦م، (٧/ ١٧٠، ١٩٨).

(٤) بلاغات النساء، ابن طيفور، (ص٧٣).

(٥) البداية والنهاية، ابن كثير، (٧/ ٢٢٥، ٢٢٦).

كما حدث مع زوج أبيها، رضوان الله عليهم جميعًا، فركائز ما بنته في خطبتها ارتجالية، وما ذكرناه سابقًا من طلبها للثأر وتهدئة معاوية ﷺ لها يؤكد ذلك، ومقام الخطبة هنا تواصلي ندب واستغاثة. ندب لمن فقدت واستغاثة بمن سيحكم علىٰ القتلة المتمردين.

ب- المتلقي ونوازعه (الباتوس):

أمَّا المتلقي فهو الطرف الذي يريد الخطيب التأثير فيه، وينقسم إلىٰ: عام، وخاص[1]. فالمتلقي عليٌّ ﷺ وإن لم يكن معنيًا في كثير من الضمائر التي خاطبت فيها عائشة ﷺ سامعيها. وهنا يمكن أن نحدّد أن المتلقي الخاص هو علي ﷺ، طالبة منه الثأر والاقتصاص بخطاب مبطّن، يظهر فداحة ما فعلوه، وآخر مستمع كوني مفتوح، بخاصة أن من قتلة عثمان ﷺ هم أنفسهم ممّن أقبلوا إلىٰ علي ﷺ طالبين منه تولي زمام الحكم، وهم ممن نعتتهم ابنة عثمان ﷺ في نعوتها وضمائرها.

ولاشك في أن علمها بنوازع المتلقي وهو علي ﷺ من الرغبة بالعدل لما جبلت عليه نفسه من حب للخير، وكذلك إحاطتها بنوازع من التفَّ حوله سواء من المتمردين أو من بقايا المجتمع المدني المختلفة نوازعهم، فحدثتهم بنزعة الرغبة بالثأر عبر استدعائها كلمة «**يا ثارات عثمان**» عندها، وعبر ذكر مسلمات اتفق عليها من مناقب المغدور أثر ذلك الغدر علىٰ المجتمع من تشرذم وتشتت وعواقب، ولاشك في أن في بداية حديثها يطرح سؤالا استشكاليا، يعرضها للمساءلة، لِمَ كل هذا الندب؟ ولمن؟ وما الهدف؟؛ لتكون الخطبة هي الجواب المسكت «فالأقوال الخطابية تقوم علىٰ مبدأ الافتراض المؤسس علىٰ الجواب والسؤال، منطلقة من

(١) نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، الحسين بنو هاشم، ط١، (ص٣٦)، الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقه، حافظ إسماعيل علوي، (ص٦٩)، الحجاج بين الدرس البلاغي العربي والدرس اللساني الغربي، نور الدين عكاشة، (ص١٠٩).

مجموعة من المقومات التي تحكم العمليات التواصلية»[1] وبما أن الحوار من أبرز مستويات الخطاب البلاغي التي يتجلىٰ فيها التساؤل وهي العلاقة التخاطبية بين المخاطَب والمخاطِب التي يتغير فيها الأداء في ظاهرتي التشخيص والمقام»[2].

نرىٰ أن هوية المتكلم في الخطبتين وصلة قرابتهما بالمغدور واختلافهما فكرا مع المتمردين هي الجزء الأكبر من المقصود بحديثهما، صنعت سلسة حوارية ذات بعد حجاجي فالهوية والاختلاف ثنائية قادرة علىٰ ذلك، لـ«تساعد هذه الثنائية علىٰ تقريب المسافة الحجاجية كما يرىٰ «مايير»، وذلك عبر مرحلتين فقد اعتمدا علىٰ الهوية لتقريب العواطف والأحاسيس المشتركة وذلك بالاعتماد علىٰ مبدأ لتماثل الذي يحصل بين المتكلم والمخاطب بالاعتماد علىٰ رزمة من القيم والمعتقدات والمشتركات الأخرىٰ»[3]. وذلك يظهر جليا حين ذكرت نائلة وعائشة صفات عثمان وأفضاله ومكانته عند النبي ﷺ «والمقصد من ذلك إذعان الخصم لمضمون القول وتصديقًا له كمسلمة تخاطبية، لنلحظ بعدها في آخر الخطبة التصريح بالمصير الذي ينتظرهم بحجة لا يمكن دحضها مدعومة باللي وهي مصير الخونة والمتمردين، وهنا تضعف قوة الاختلاف النوعي الذي يعبر عنه أحد المتحاورين بتوظيف كل أشكال التعارض والتباين المتمثلة بألوان المراوغة والإقصاء»، فقد فمارست نائلة وعائشة فعل الاختلاف بشكل صريح وواضح فلم تحددا قضية الإقناع بذاتها وإنما راهنتا علىٰ مصيرهم المخزي من التشرذم، وبذلك يكونان قد أسسا «لرهان حجاجي يؤسس قاعدة الحجاج داخل اقتضاءات مجالية يتمتع بها المخاطبون بقسط من الحرية»[4].

(١) عندما نتواصل نغير، مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، عبد السلام عشير، (ص٢٠٥).

(٢) نظرية المساءلة والبلاغة لميشال مايير مقاربة في الأصول والأسس والتمثلات، نعمة دهش فرحان، (ص١٣).

(٣) عندما نتواصل نغير، مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، عبد السلام عشير، (ص٢٢، ٣٨).

(٤) ينظر المرجع السابق، (ص٢٢).

المبحث الثاني
البنية الحجاجية الاتصالية

وهي البنية الحجاجية في خطبة ابنة عثمان وزوجته بعد مقتله - ﷺ أجمعين - «اللاغوس».

وقد قررنا أن نعتمد منهج بيرلمان في تقسيمه لتقنيات الحجاج وبنيته؛ إذ قسّمها إلىٰ:

أولًا: الحجج القائمة علىٰ الوصل، وهي التي تمكّن من نقل القبول الحاصل حول المقدّمات إلىٰ النتائج.

ثانيًا: الحجج التي قامت علىٰ الفصل، والكلام عنها أقلّ، وهي التي تسعىٰ إلىٰ الفصل بين عناصر ربطت اللغة أو إحدىٰ التقاليد المعترف بها بينها[1].

أولًا: البنية الحجاجية ذات الطرائق الاتصالية:

المقصود بها تلك الطرائق التي تقترب بين العناصر المتباينة، وتتيح إقامة ضرب من التضامن بينها لإبرازها في صورة بيّنة واضحة، ومنها:

أ- الحجج المؤسَّسة علىٰ شبه المنطق.

ب- الحجج المؤسَّسة علىٰ بنية الواقع.

ج- الحجج المؤسِّسة لبنية الواقع.

أ- البنية الحجاجية المبنيّة علىٰ شبه المنطق:

هي التي تستمد قوتها الإقناعية من مشابهتها للطرائق الشكلية والمنطقية والرياضية في البرهنة، فهي تعتمد علىٰ: التناقض، والتماثل التام والجزئي، وقانون التعدية، وبعض من العلاقات الرياضية، مثل: علاقة الجزء بالكل، وعلاقة الأصغر بالأكبر والتواتر وغيرها[2].

---

(١) نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، الحسين بنو هاشم، (ص٥٧).

(٢) نظرية المرجع السابق، (ص٥٧) وما بعدها، والحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته، عبدالله صولة، (ص٣٢٤)=

*** أولًا: التناقض والتعارض:**

المراد بالتناقض أن توجد قضيتان في نطاق مشكلتين: إحداهما نفيٌ للأخرىٰ بين ملفوظين متعارضين، فيصبح وضع الملفوظين علىٰ محكِّ الواقع؛ لاختيار إحدىٰ الأطروحتين وإقصاء الأخرىٰ، فهي خاطئة. فالتعارض ارتبط بالمقام وظروفه التي ترجّح قضية علىٰ حساب أخرىٰ؛ إذ يمكن تأوّل الألفاظ بطرائق مختلفة، في حين يرتبط التناقض بقضايا النفي والإثبات، والحضور والغياب؛ ولذا فمحلّ الحجاج هو التعارض، وليس التناقض المنطقي الصارم الملزم الذي لا يتأثر بالظروف، فالأنساق الصورية لا تقبل التعارض بين ما دافع عنه المحاجج سابقًا، أو تبنّاه وبين حالٍ لاحق، وهذا مما سيعرض المُحاجَج إلىٰ السخرية، والسخرية سلاح نافذ الحجة[1]، وهو ما يعبّر عنها «بقلب البرهان علىٰ صاحبه»[2]. وقد وقع هذا في الخطبتين.

ومثال ذلك ما قالته ابنة عثمان رضي الله عنهما: «**فهل أعلنت كلمتكم، وظهرت حسكتكم؛ إذ ابن الخطاب قائم علىٰ رؤوسكم..... يقمعكم غير حذر من تراجعكم الأمانيّ بينكم، وهلّا نقمتم عليه عودًا وبدءًا؛ إذ ملك ويملّك عليكم من ليس منكم..... لا تنكرون ذلك منه خوفًا من سطوته وحذرًا من شدّته.....، وهل تسمو هممكم إلىٰ منازعة.....، فتطأطأتم له تطأطؤ الحِقة، ووليتموه أدباركم حتىٰ علا أكتافكم.....، حتىٰ إذا عاد الأمر فيكم ولكم، وإليكم، في مونِقَةٍ من العيش عرقها وشيج،..... فانتضيتم سيوفكم، وكسرتم جفونكم. وقد أبىٰ الله أن تُشام سيوفح جُرّدت بغيًا وظلمًا**»[3].

الشاهد: «فهل أعلنت كلمتكم وظهرت حسكتكم....» وقولها: «حتىٰ إذا عاد الأمر فيكم،

=وما بعدها.

(١) الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته، عبدالله صولة، (ص٣٢٤) وما بعدها، في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، عبدالله صولة، (ص٨١- ٨٢).

(٢) الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، سامية الدريدي، (ص١٩٦).

(٣) بلاغات النساء، ابن طيفور، (ص٧٢، ٧٣.

ولكم، وإليكم، في مونِقَةٍ من العيش عرقها وشيج، وفرعها عميم،...فانتضيتم سيوفكم، وكسرتم جفونكم».

القضية الأولىٰ: قضية طاعتكم العمياء لعمر الفاروق ﷺ.

القضية الثانية: تمردكم علىٰ عثمان رغم لينه.

فقضية طاعتكم لعمر ﷺ رغم كرهكم لمن ولَّىٰ، وكرهكم لشدّته تحاج قضية تنمركم علىٰ عثمان ﷺ وتمردكم عليه، رغم عزله للولاة الذين اعترضتم عليهم. فقضيتكم الثانية في تنمركم باطلة بموجب الأولىٰ.

فابنة عثمان ﷺ أبرزت التعارض بين أفعال الخصم، ووضعت القضيتين علىٰ محكّ الواقع والظرف والمقام، «وفي هذا إماطة اللثام عن التعارض في أطروحات الخصم، وأن الخصم عادة يبحث عن مواطن الهزء في خطاب خصمه أي: مواطن التعارض»[1].

وقد اتُخذ الحجاج مساحة واسعة في خطبة ابنة عثمان؛ ليتخللها أساليب بلاغية دعمت التعارض بين الحجتين، فالاستفهام الذي يحمل تقريعًا شديدًا في (هل – وهلّا)[2]. عند قولها: «**فهل أعلنت كلمتكم...، وهلّا نقمتم عليه عودًا وبدءًا**»، فهي تثير تساؤلًا في نفس السامعين عبر العودة إلىٰ الخلف عن تغيب هذا الصوت والقوة في عهد عمر ﷺ، و(هل) أدت معنىٰ إنكار النية عليهم، وهو الحاصل من قضية حجاجها، فلم يرتفع لهم صوت؛ لتثني بأداة استفهام أخرىٰ، تحمل تخصيصًا (هلَّا) مختومًا بنفسٍ إنكاريٍ، ظاهره التنديم، لا علىٰ سكوتهم في عهد عمر، بل

(١) في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، عبدالله صولة، (ص٤٤).

(٢) معاني النحو، فاضل صالح السامرائي، (٤/ ٢٤١-٢٤٣). النفي بـ(هل) ليس نفيًا محضًا، بل هو استفهام شرب معنىٰ النفي، فقد يكون مع النفي تعجب أو استنكار أو غير ذلك من المعاني. وشرح التسهيل تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد، محمد بن يوسف ابن أحمد، محبّ الدين الحلبي المصري، المعروف بناظر الجيش، (٤/ ٤٨٨).

لتجرّئهم في عهد عثمان ﷺ.

ولم يغب عنها أيضًا مبدأ التركيب اللفظي، فاختيارها للكلمات له جرسٌ قوي، ونغمٌ يرنُّ في الآذان، يزيد من جلاء هذا التناقض، فكلمة «تطأطأتم» - وفي هذا التكرار الترنمي - معنىً يكشف الأبعاد النفسية لأولئك المحتجين بخضوعهم في عهد عمر ﷺ. فالطاء حرف مهموس، وفيه دلالة علىٰ المرونة والمطاوعة، وهو من الحروف النطعية[1]، يقوي حجتها من أنه لا صوت ولا تمرد في عهد عمر ﷺ، ولم تكتف بذلك، بل أعادتها (أي الطاء)؛ لتجعل من صدىٰ الأولىٰ تصديقًا للثانية التي أتبعتها بصورة ومخيلة أنكم كنتم مطيّة سهلة كما تُركب الحقة عند بلوغها: وهي الناقة التي بلغت ثلاث سنين، ودخلت الرابعة[2]. فموسيقىٰ حرف الطاء المتكرر مرتين والصورة الفنية يثيران جدلًا حقيقيًا في نفس السامع عن مدىٰ إذعانهم لمن ملكهم بالقسوة، في حين أن تنمّرهم وقتلهم لمن ملكهم بالليّن؛ لتجعل الصورتين تحاجّان بعضهما، وتعارضان بعضهما الآخر؛ لا للسبب يتعلق بتصرف الخليقة.

*** ثانيًا: البنية الحجاجية في التماثل والحد:**

يقتضي مبدأ التماثل التعريف بالفكرة وضبط حدودها، ووجودها عن طريق الكلمات التي تتفق أو تتشابه لفظًا، كأن يقول: أحدنا (الدنيا هي الدنيا)[3].

وهو ما نجده في قول زوج عثمان: **«لتتعبدنكم الشبهات، ولتفرقن بكم الطرقات، ولتذكرن بعدها عثمان ولا عثمان»**.

الشاهد: «عثمان ولا عثمان».

فعثمان الأول ليس هو ذاته عثمان الآخر، وإنما أطلق علىٰ الآخر عثمان مجازًا؛ أي:

(١) خصائص الحروف العربية، حسن عباس، (ص٤٨، ١٢١).

(٢) لسان العرب، ابن منظور، بيروت، لبنان، دار صادر، (١٠/ ٥٤، ٥٥).

(٣) في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، عبدالله صولة، (ص٤٤، ٤٥).

كعثمان في عدله ولينه ورحمته معكم، وكأنَّها تضع حدًّا للخليفة الذي سيبحث عنه هؤلاء المتمردون بعد أبيها ﷺ، فهم سيبحثون عن خليفة يكون كعثمان في لينه وعدله. فقد أوجزت في هذا التماثل الذي وضعته، وأبلغت. فصيغة التماثل التي سلكتها ليست إلَّا طريقة شكلية، توخّتها في تقويم حكم عثمان ﷺ بوساطة الحشو الذي ظهر عبر تكرار اسم عثمان ﷺ. فهي عرَّفت الخليفة الذي سيتمنون حكمه، فما بين المعرَّف والمعرِّف تماثلٌ وتطابقٌ لفظًا، ولكنه في الحقيقة يوجد اختلاف، فعثمان ﷺ له من الميزات؛ لكونه صحابيًا، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وغيرها من المناقب يستعصي علىٰ أي خليفة أن يأتي بها، وإن أشبهه ﷺ عدلًا ورحمة؛ «لأن استخدام التعريفات في الحجاج يفرض تعددها، والاختيار بين هذه التعددية»[1]. ومن هنا قويت حجّة زوج عثمان ﷺ، فـ«التماثل الظاهر يصعب دفعه ورده»[2].

وفي شكل آخر لهذا التماثل – وإنْ خلا من التشابه اللفظي الذي ركّز عليه أصحاب الدرس الألسني[3]، نجد شكلًا آخر للتعريف معنويًا، فهو مثل الأول معنىٰ لا لفظًا، ومثاله قول ابنة عثمان ﷺ: **«وسيعلم كيف تكون إذا كان الناس عباديد، وقد نازعتكم الرجال، واعترضت عليكم الأمور، وساورتكم الحروب بالليوث، وقارعتكم الأيام بالجيوش، وحمىٰ عليكم الوطيس؛ فيومًا تدعون من لا يجيب، ويوما تجيبون من لا يدعو، وقد بسط باسطكم كلتا يديه يرىٰ أنّهما في سبيل الله؛ فيدٌ مقبوضة، وأخرىٰ مقصورة، والرؤوس تنزو عن الطلىٰ والكواهل»**[4].

الشاهد: (تعريفها لكلمة عباديد).

(١) الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، سامية الدريدي، (ص٢٠٠).

(٢) تاريخ نظريات الحجاج، فيليب بروتون، وجيل جوتييه، (ص٤٨).

(٣) نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، الحسين بنو هاشم، (ص٥٩- ٦٤).

(٤) بلاغات النساء، ابن طيفور، (ص٧١).

فقولها ليس بما يتطابق لفظًا، فقد ارتأت إعمال الذهن ومناوشة عقل سامعها، وذلك حين استعملت كلمة «عباديد»؛ ليأتي التعريف المبطّن الذي يصور معنىٰ العباديد:

١- عدم امتلاك زمام أمورهم، فهم محطٌّ لتناوشهم أيدي الآخرين.

٢- عرضة للغزو من ضعفهم.

٣- يبحثون عمن يسوسهم، ويلمُّ شملهم، فهم متفرقون.

٤- حالهم بين عاجز يريد، وآخر لا يريد فعل شيء.

وفي ذلك انتقال «من الإجمال إلىٰ التفصيل، فكان التماثل في موضوعين، أو موقفين، لهما خصائص مشتركة»[١]، كما في حال العبودية وحالهم.

*** ثالثًا: الحجج القائمة علىٰ التبادلية:**

تقوم هذه الحجة علىٰ مبدأ العدالة بين القضايا والأفراد يربطهما رابطٌ سببي واحد، أو ما ينطبق علىٰ الأولىٰ ينطبق علىٰ الثانية، فهي محاولة للمواءمة بين الحجج العكسية، «وتعتمد علىٰ التبادل بين قضيتين متماثلتين متشابهتين من الصنف نفسه بوصف أن «الكائنات المنتمية إلىٰ نفس الفئة الأساسية ينبغي التعامل معها بالطريقة نفسها»[٢]. فلا يُكال لأحدهما بما يغاير الأخرىٰ وهي دعوىٰ لتطبيق العدل»[٣]. فالحجج القائمة علىٰ التبادلية في معناها العام المشترك تمثل جوهر (ضع نفسك مكاني)، بل إن الحجة نفسها تؤسس إلىٰ مقولة حجاجية متوفرة: كيف تعيب علىٰ الناس ما تبيحه لنفسك؟[٤] وفي هذا التأويل للتبادلية يلزم الخصم أن يقف مع نفسه وقرارة نفسه؛ ليصبح الخصم والحكم.

---

(١) الحجاج في النص القرآني «سور الحواميم أنموذجًا»، هاني يوسف أبو غليون، (ص٤٥).

(٢) نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، الحسين بنو هاشم، (ص٦٤).

(٣) في نظرية الحجاج: دراسات وتطبيقات، عبدالله صولة، (ص٤٦).

(٤) الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، سامية الدريدي، (ص٢٠٣).

ومن ذلك ما نجده في استهلال خطبة نائلة زوج عثمان ﷺ طالبة المستمع بطرح الملامة عنها؛ لتقول: لا تلوموني، وضعوا أنفسكم مكاني؛ لتقول بما هو نصُّه: «**عثمان ذو النورين قُتل مظلومًا بينكم بعد الاعتذار، وإن أعطاكم العتبىٰ معاشر المؤمنين، وأهل الملَّة لا تستنكروا مقامي، ولا تستكثروا كلامي، فإني حرَّىٰ عَبْرَىٰ، رزئت جليلًا، وتذوقت ثكلًا من عثمان بن عفان، ثالث الأركان من أصحاب رسول الله ﷺ في الفضل**»(١).

الشاهد: «**لا تستنكروا مقامي، ولا تستكثروا كلامي، فإني حرَّىٰ عَبْرَىٰ**».

فقضية: حرقتها لفقد زوج يملك من المزايا يصعب توفرها في غيره.

وقضية: أن يبكي أي أحدٍ علىٰ عزيزٍ يمتلك مزايا لا تتوفر في غيره.

فنتيجة القضيتين واحدة: وهي الحزن الشديد علىٰ مفقود، عزَّ نظيره؛ لامتلاكه مناقب فريدة. وكأنها تقول: لا تلوموني، وضعوا أنفسكم مكاني حين تفقدون عزيزًا.

وفي ذلك نفخ لسريان فكري عبر هذا الحجاج، يتخلل عبر فكر الخصم؛ ليسلمه المحاجج إلىٰ نفسه.

*** رابعًا: البنية الحجاجية علىٰ حجة التعدية:**

ترتكز هذه الحجة علىٰ علاقة صورية منطقية بين طرفين أو أكثر، ومضمونها أنه إذا وُجدت علاقة معينة سواء أكانت مساواة أم تضمينًا أم شيئًا أكبر من شيء بين المفترض (أ) والمفترض (ب) هي نفسها العلاقة بين المفترض (ج) والمفترض (ب)، فمن المؤكد إذن أنها ستكون نفسها بين المفترض (أ) والمفترض (ج).

ومما يمكن إدراجه تحت هذا السقف قول عائشة ﷺ: «**أفنيت نفسه، وطلَّ دمه في حرم رسول الله ﷺ ومنع من دفنه، اللهم ولو يشاء لامتنع ووجد من الله ﷻ حاكمًا، ومن المسلمين ناصرًا، ومن المهاجرين شاهدًا**».

---

(١) بلاغات النساء، ابن طيفور، (ص٧٠).

(أ) قتلهم لعثمان ﷺ.

(ب) هدر دمه في حرم رسول الله.

(ج) منعهم عن دفنه.

فالعلاقة بين (أ) و(ب) شناعة فعلتهم وقبحها، فـ(ب) ضمن (أ) التآمر بالقتل.

ومنعهم لدفنه هو (ج) يرتبط بذات العلاقة مع (ب)، فأفعالهم في (أ) و(ب) و(ج) كلها تساوي قباحة فعلهم وشناعته، وتكتب في شكل معادلة كالآتي:

أ + ب = ب + ج = أ + ج = قباحة فعلهم وشناعته.

*** خامسًا: الحجج شبه المنطقية المعتمدة علىٰ العلاقات الرياضية:**

من الواضح أن هذه الحجج «تستمد هذه الحجج طاقتها الإقناعية الحجاجية من علاقات وقواعد رياضية صورية شبه منطقية، ينظمها المتكلم من خلال علاقات معينة حسب حاجاتها الإقناعية مستفيدًا بما يتمتع به من طاقات إقناعية مؤثرة»[1]. ومن ذلك:

إدماج الجزء في الـ(كل):

ومحور هذا الحجاج أن ما ينطبق علىٰ الكل ينطبق علىٰ الجزء، فهو مندمج في دائرته، لا يغادرها، وينظر إليها من زاوية كمّية، فالكل يحتوي علىٰ الجزء، وتبعًا لذلك فهو (أي الكل) أهم من الجزء؛ مما يجعل هذا الضرب من الحجاج في مواضع الكم ومعانيه[2].

ومما بني علىٰ الاحتجاج بأهمية الـ(كل) بذكر جزء مهمٍّ في قول ابنة عثمان ﷺ: «**أو تطيح هامات وتفرىٰ غلاصم وتخاض دماء**»[3].

الشاهد: «هامات»، و«غلاصم».

(١) الحجاج في النص القرآني «سور الحواميم أنموذجًا»، هاني يوسف أبو غليون، (ص٤٨).

(٢) في نظرية الحجاج دارسات وتطبيقات، عبدالله صولة، (ص٤٧-٤٨).

(٣) بلاغات النساء، ابن طيفور، (ص٧٢).

«لاصم»، فالغلاصم: الغَلْصَمَةُ: رأْس الحُلْقوم بشواربه وحَرْقدته، وهو الموضع الناتئ في الحَلْق، والجمع الغَلاصِمُ، وقيل: الغَلْصَمةُ اللَّحم الذي بين الرأْس والعُنُق[1]. **والحُلقُومُ**: تجْويفٌ خلْفَ تجويف الفم، وفيه سِتُّ فُتحَاتٍ[2]. فهو جزء من الرأس فقد عبرت بـ(الكل)، وهي الهامة؛ لأهميتها، ثم عرَّجت علىٰ الجزء؛ لتقيمَ حجاجًا قويًا متبوعًا بـ(الكل). فأنتم أيها المتمردون ستُفرىٰ رؤوسكم؛ مما يدل علىٰ قوة البطش الذي سيقع عليكم، وبذا تثير الرعب في قلوبهم رغم أنه أمر قد مضىٰ وانقضىٰ، وهو فرضية استجارة عثمان ﷺ بالمسلمين، بخاصة المهاجرون، وهذا يثير تساؤلًا: ما الحكمةُ من أن تقيم حجاجًا علىٰ أمرٍ ماضٍ في وقتٍ آنٍ اتضحت فيه نتائج الماضي؟

والإجابة تكون من أجل جعل الماضي في هيئة الحاصل الحالي، ويؤكد ذلك استعمالها الفعل المضارع؛ لترعيبهم، وبعث رسالة إلىٰ المتمردين، مفادها: أنكم إنْ نجوتم فيما دبرتم له في الماضي فلا يعني نجاتكم في المستقبل من جرم ما فعلتم، وهو تهديدٌ مبطنٌ؛ للتأثير علىٰ الخصوم، والتهوين من أمرهم، وأن ما حصلتم عليه لم يكن بقوة منكم، بل للين عثمان ﷺ، وتنازله عن مقارعتكم، وانتهاجه معكم منهج الحوار. وفي ذلك ذمٌّ لهم، وإعلاءٌ من شأنه ﷺ لهم.

*** الحجة المبنية علىٰ تقسيم الـ(كل) إلىٰ أجزاء:**

هذه الحجج تلجأ إلىٰ التقسيم؛ إذ يجد المحاجج من خلال هذه الحجج السبيل إلىٰ الإقناع عن طريق استعمال الأجزاء. والميزة الأساسية لهذه الحجج هو التعداد الشامل، وقد استشهد بيرلمان علىٰ ذلك بمقولة، نصها: «إن نُسقط الأجزاء فرضية واحدة يهوِي ببنائنا الحجاجي، ونصبح أضحوكة للجميع»[3].

ومثال ما قام حجاجه علىٰ التعداد الشامل قول زوج عثمان ﷺ: «**وشددتم شدة السفهاء**

(١) لسان العرب، ابن منظور، (١٢/ ٤٤١).

(٢) المرجع السابق، (٤/ ٢١٦).

(٣) نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، الحسين بنو هاشم، (ص٧١).

علىٰ النقي التقي الخفيف بكتاب الله ﷻ لسانًا، الثقيل عند الله ميزانًا، فسفكتم دمه، وأنهكتم حرمه، واستحللتم منه الحرم الأربع: حرمة الإسلام، وحرمة الخلافة، وحرمة الشهر الحرام، وحرمة البلد الحرام»[1]. فالحرمات الأربع لها عقوبة، فما ينطبق عليها في الحكم الشرعي ينطبق علىٰ حرمة الخلافة، وحرمة الشهر، فاعتبار أنَّ كل واحد من هذه الأجزاء غايته الإقناع بقضية الـ(كل)، وهي: كيف استحلوا دم عثمان رضي الله عنه؟

فتعدد الحرمات الأربع إثبات لوجود المجموع الذي يؤكد شناعة أفعالهم، ومن ثمّ تقوية الحضور بمعنىٰ إشعار الآخرين بوجود الشيء، فموضوع التقسيم من خلال التصريح بوجود أجزائه[2]؛ استشعارًا لقيمة الشيء وعظمته.

ب- الحجج المؤسسة علىٰ بنية الواقع:

تقوم قوة هذه الحجة علىٰ بنية الواقع، والتجارب، والوقائع والأحداث المتعالقة بين الأشياء المكونة للعالم، فهي تحاول الربط بين أحكام مُسلَّم بها، وأحكام يسعىٰ السياق النصي لتأسيسها وتثبيتها، وجعلها من المسلمات، فهي تتأسس علىٰ التجربة، وعلىٰ العلاقات الحاضرة بين الأشياء المكونة للعالم،يقول بيرلمان: «بمجرد ما يتم الجمع بين عناصر من الواقع في علاقة معترف فيها، يصبح من الممكن أن نؤسس عليها حجاجًا يسمح بمرور ما هو مقبول إلىٰ ما نسعىٰ لجعله مقبولا»[3].

ومعظم هذه الحجج تقوم علىٰ علاقتين:

الأولىٰ: تتابعية: كالسببية، ومنها البراغماتية.

(١) بلاغات النساء، ابن طيفور، (ص٧١).

(٢) في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، عبدالله صولة، (ص٤٨).

(٣) نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، الحسين بنو هاشم، (ص٧١).

والعلاقة الثانية: التعايشية: كالحجة بالصلاحية[1].

*** أولًا: التتابع:**

ويعتمد هذا النوع من الحجاج علىٰ علاقة الاتصال بالسبب من طريقين، هما:

١ - الربط بين السبب والحدث، أو المقدمة، وما ينتج عنها من نتائج.

٢ - وقد يكون العكس، فيكون الانطلاق من النتائج.

ومن هذا الطريق تتفرع العلاقة إلىٰ عدة أشكال، منها:

١ - حجاج يسير في الاتجاه، ويكون البحث فيه عن أسباب ظاهرة ما، فهو يعتمد في بنائه علىٰ الربط بين السبب ونتائجه، مثل: تكاسل فرسب، ذاكر فنجح.

ومن ذلك قول زوج عثمان ﷺ: «**في عقب سيرة من رأيتموه فظًا، وعددتموه غليظًا،....فحين فقدكم سطوته وأمنتم بطشه، رأيتم أن الطرق قد انشعبت لكم، والسبل قد اتصلت بكم. ظننتم أن الله يصلح عمل المفسدين. فعدوتم عدوة الأعداء، وشددتم شدّة السفهاء علىٰ التّقي النّقي، الخفيف بكتاب الله ﷻ لسانًا، الثقيل عند الله ميزانًا، فسفكتم دمه، وانتهكتم حرمه، واستحللتم منه الحُرَم الأربع: حرمة الإسلام، وحرمة الخلافة، وحرمة الشهر الحرام، وحرمة البلد الحرام...**»[2].

فالشاهد هنا: سبب تمردكم هو زوال شدّة عمر ﷺ في الحكم «**فحين فقدكم سطوته وأمنتم بطشه**»، فكانت النتيجة «**فعدوتم عدوة الأعداء، وشددتم شدّة السفهاء**».

فالرابط الذي ربطته ابنة عثمان ﷺ بالفاء الاستئنافية والظرف (حين) يدل علىٰ التقييد بزمن[3]،

(١) تاريخ نظريات الحجاج، فيليب بروتون، جيل جوتييه، (ص٥٠)، نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، الحسين بنو هاشم، (ص٧١).

(٢) بلاغات النساء، ابن طيفور، (ص٧١).

(٣) معاني النحو، فاضل صالح السامرائي، الأردن، (٢/ ١٩٠).

فقد الشدّة عند قولها: «**فحين فقدكم سطوته وأمنتم بطشه**»؛ لتربط السبب بالنتيجة في قولها الذي أسبقته بالفاء السببية بكونه رابطًا للسبب السابق: «**فعدوتم عدوة الأعداء، وشددتم شدّة السفهاء علىٰ التّقي النّقي، الخفيف بكتاب الله ﷻ لسانًا، الثقيل عند الله ميزانًا، فسفكتم دمه، وانتهكتم حرمه، واستحللتم منه الحُرَم الأربع**»، وقد تتابعت النتائج بأكثر من صورة منفصلة، وبنوع من التفصيل من فقدانهم لشدّة عمر ﷺ نتج عنها تمردهم واستحلالهم الحرمات الأربع، فبدأت حجاجها بالسبب؛ لتبين أن ما فعلوه في عهد عثمان ﷺ ليس لقوة فيهم، بل لفقدهم الشدّة، وكأنها ترسل رسالة مبطنة لعلي ﷺ بالشدة عليهم، فهي ما يستحقونه، وبذلك جمعت بين مرامٍ عدة، منها: بيان حقيقة ضعفهم والتحذير لمن سيخلف المسلمين، والتنبيه أن ما يناسبهم الشدة. وهنا تتجلىٰ حقيقة المستمع الكوني وقدرة التجاوز والتمرير لأمور يصعب التصريح بها، كما أشرنا سابقا في بداية هذه الدراسة في المبحث الخاص بتأطير البحث.

فالبنية الحجاجية القائمة علىٰ توالي السببية أدّت أغراضًا عدة لعدة اتجاهات، منها: ما كان نحو المتمردين، وآخر نحو من سيحكمهم، وثالث اتجاه المجتمع الإسلامي في المدينة المنورة بشكل خاص، والمسلمين في الأمصار الأخرىٰ عامة.

٢- حجاج يرمي إلىٰ تحديد آثار ظاهرة ما، فهو ينطلق من النتيجة؛ ليصل إلىٰ استخلاص الأحداث والأسباب مثل: قولنا: رسب؛ لأنه تكاسل، ونجح؛ لأنه ذاكر.

مثل قول ابنة عثمان ﷺ: «**فهل أعلنت كلمتكم وظهرت حسكتكم**[1] **إذ ابن الخطاب قائم علىٰ رؤوسكم، مائل في عرصاتك؛ إذ ملك ويملّك عليكم من ليس منكم بالخلق اللين ، يسعىٰ عليكم وينصب لكم، لا تنكرون ذلك منه خوفًا من سطوته وحذرًا من شدّته**»[2].

(١) هي عشبة تضرب إلىٰ الصفرة ولها شوك يسمىٰ الحسك أيضا مدحرج، لا يكاد أحد يمشي عليه إذا يبس إلا من في رجليه خف أو نعل، لسان العرب، (١٠/ ٤١١).

(٢) بلاغات النساء، ابن طيفور، (ص٧١).

فالشاهد في ذكر النتيجة: «**فهل أعلنت كلمتكم، وظهرت حسكتكم**».

السبب: «**خوفًا من سطوته وحذرًا من شدّته**».

فالمتوقع منهم، وهم أصحاب الطبيعة التمردية، أن تعلو أصواتهم بالاعتراض والتنمر إذا حصل ما يخالف رأيهم وفكرهم، إلا أنَّ الصمت جاء مغايرًا لما جُبلوا عليه، والسبب خوفهم من شدّة الفاروق ﷺ، فبنت حجاجها علىٰ ذكر النتيجة المتوقعة؛ لتردف السبب وكأنها تقول: هذا واقعكم؛ لأنكم كذا.

*** ثانيًا: من حجج الاتصال التتابعي: حجة السلطة، حجة الشخص، وأعماله:**

«يمكننا أن نبني حجاجًا انطلاقًا من علاقة التعايش بين الأشياء، وحصرها ببعض في علاقة الذات بصفاتها، أو الشخص بأفعاله؛ ولذا سنتحدث عن حجّة الماهية أو الذات، وتتمثل في تفسير حدث، أو موقف ما، والتنبؤ به انطلاقًا من الذات التي يعبّر عنا»[1].

ومثال ذلك ما ورد علىٰ لسان زوج عثمان ﷺ في قولها:

«فكان واحدهم غير مدافع، وخيرتهم غير منازع، لا ينكر له حسن الغَناء، ولا عنه سماح النعماء. إذ وصل أجنحة المسلمين حين نهضوا إلىٰ رؤوس أئمة الكفر؛ حيث ركضوا فقلَّدوه الأمور؛ إذ لم يكن فيهم له نظير، فسلك بهم سبيل الهدىٰ. وبالنبي وصاحبيه اقتدىٰ. مخسئًا للشيطان إلىٰ مداحره، مقصيًا للعدوان إلىٰ مزاجره. تنقشع منه الطواغيت، وتزايل عنه المصاليت، حتىٰ امتدَّ له الدين...، ولحق الكفر بالأطراف،.... فأقام يمدَّكم بالرأي، ويمنعكم بالأدنىٰ، يصفح عن مسيئكم في إساءته.....فاستلتم عريكته حين منحكم محبته، وأجرركم أرسانكم، آمنًا جرأتكم وعدوانكم، فأراكموه الحق إخوانًا، وأراكموه الباطل شيطانًا»[2].

(١) في نظرية الحجاج دارسات وتطبيقات، عبدالله صولة، (ص٥١).

(٢) بلاغات النساء، ابن طيفور، (ص٧٠، ٧١).

فقد ذكرت من صفات مناقب عثمان ﷺ ما يأتي:

١- أفضليته في الصحابة رضوان الله عليهم.

٢- سماحته.

٣- غناه.

٤- كثرة فتوحاته فقد اشتهر عهده بسعة الفتوحات، واتساع الدولة.

٥- حكمه وفق سنة النبي ﷺ، وهدي صاحبيه: أبي بكر وعمر - ﷺ أجمعين -.

٦- انتشار الأمن والأمان في عهده، وهيبة الدولة من ردٍّ للعدوان، وخوف الطواغيت واللصوص من حكمه.

٧- انتشار الإسلام.

٨- المرونة واللين الذي عامل به رعيته.

فزوج عثمان ﷺ تحجّ الخصوم بأفعال عثمان ومكانته، وسلطته التي يكتسبها «من مبدأ الثبات علىٰ الشخصية؛ بحيث إن قامت بفعل معين أو اتخذت موقفًا محددًا فلأنها عُرفت بخصال معلومة منذ زمن بعيد، وستظل كذلك ما بقيت علىٰ قيد الحياة»[1]، فقد استثمرت هيبة عثمان ﷺ عبر سرد أعماله ومناقبه، معتمدة علىٰ سلطة إجماع الصحابة علىٰ اختياره؛ للخلافة، وتقديمه علىٰ غيره في الحكم لأفضليته؛ لنصل في نهاية الأمر إلىٰ أن من كانت هذه صفاته فكيف تتجرؤون عليه، وتسفكون دمه، فعملكم باطل؛ لأن من غدرتم به، وتمردتم عليه له من المناقب التي تحول بينه وبين عمل أي سوء.

*** ثالثًا: البنية الحجاجية المؤسسة لبنىٰ الواقع:**

هي حجج الاتصال المرتبطة بعناصر الواقع دون أن تتأسس عليه، أو تبنىٰ عليه، بل هي التي تؤسس الواقع، أو تكمله، وتظهر ما خفي منه، وتشمل تأسيس الواقع بواسطة حالات خاصة

(١) الحجاج في أو الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، سامية الدريدي، (ص٢٢٨).

من المثل أو الاستشهاد، أو النموذج وعكسه، أو الاستدلال بواسطة التمثيل[1].

١ - الحجة بالمثال:

ينطلق من مثال مفرد؛ لتعميم حكم ما، فيتأسس الواقع على ظاهرة مفردة تتوسع لتصبح حالة عامة، لا مجرد حالة خاصة[2]. ويتميز المثال من التشبيه - الذي يندرج في حجة التأطير - أنه قد تحول من حالة خاصة إلى حالة عامة، فالاحتجاج بالمثال «ضرب خاص حيث يظهر المثال بالمظهر الذي يستوجب الاحتذاء، والأنسب في الاحتجاج به حين يريد المتكلم توجيهه المتلقي إلى سلوك معين أو تحديد موقفه وجعل ذلك المثال محط استلهام كما يرى «بيرلمان»، وهي حجة أفضل ما تستخدم في القيادة والتوجيه»[3].

وهو يختلف عن التماثل[4]. فالمثل تبني عنده قاعدة، فهو يسعى لتأسيس قاعدة كما في قول نائلة زوج عثمان رضي الله عنه: «**وأين كنتم لعثمان ذي النورين منفس الكرب، زوج ابنتيّ رسول الله ﷺ، وصاحب المربد وروما، هيهات والله ما مثله بموجود**»[5].

فقد ضربت أمثلة تؤسس حكمًا لعثمان رضي الله عنه بالصلاح وأنه مفرج الكروب عندما ذكرت أنه صاحب «المربد»، و«رومة»، وهو مما لا يجهله أحد في ذلك العصر، فما المربد ورومة؟

المربد قطعة أرض رومة، وهي بئر اشتراها عثمان من يهودي، ومنحها للمسلمين في وقت عصيب[6]. وقد أتت بمقدمة قبل أن تأتي بهذين المثلين، عندما قالت: منفّس الكرب ثم عادت،

(١) الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته، عبدالله صولة، (ص٣٣٧)، نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، الحسين بنو هاشم، (ص٨٥).

(٢) الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، سامية الدريدي، (ص٢٣٧).

(٣) المصدر السابق، (ص٢٤٥).

(٤) الحجاج في التواصل، فيليب بروطون، (١/ ١٢٩).

(٥) بلاغات النساء، ابن طيفور، (ص٧١).

(٦) البداية والنهاية، ابن كثير، (٧/ ١٧٧).

وذكرت أنه صاحب «المربد»، و«ورمة»، وقد شهد النبي ﷺ لمن يشتريها بالمغفرة من الله ﷻ.

وإذا كانت المحاجّة بالمثل تقتضي وجود بعض الخلافات في شأن القضية الخاصة التي جيء بالمثل لدعمها[1]: كعدم أهلية عثمان ﷺ للخلافة – وحاشاه – بالنسبة للمتمردين، فنكون مررنا من حالة خاصة إلىٰ حالة أكثر خصوصية عند ذكر المربد ورومة، وكأن الحجة تقول: إنّ من كانت هذه أفعاله فكيف لا يستحق الخلافة؟

وإن كان من الممكن أن تجعل هذه الحجة من الحجاج بالسلطة وهي التي تعتمد علىٰ أفعال الشخص وقيمتها غير أني أميل إلىٰ وضعها في الحجة بالمثال، حيث إن ضرب قضية خاصة وجعلها قاعدة بنت المتحدثة عليها حكما عاما علىٰ عثمان بن عفان أنه منفس الكروب لتطوي في حديثها بأن عليكم الاقتداء عليه فجعلت من الحادثتين قاعدة عامة يجب أن يجعلا مثالا يستلهم منهما إغاثة الملهوف.

٢- الحجة بالشاهد:

الاستشهاد حجة جاهزة يستعان به؛ لتقوية درجة التصديق ولغاية التوضيح، ويعني اللجوء إلىٰ أقوال ومأثورات من الثقافة الرائجة، فهي متناصّات متعالقة في أفق التوقعات «يطرح بها عند حالة مشابهة لها؛ لتدعم ما طرح؛ لكون الشاهد يحظىٰ بدعم ورواج ثقافي لدىٰ المتلقين؛ ليكون الحجاج بالشاهد مقصده المرور من حالة خاصة إلىٰ حالة خاصة، أو من خاصة إلىٰ عامة»[2].

ومثال ما انتقلت به من كون القبيح عارضًا بهم إلىٰ كونه جبلّة وخصيصة لهم، ومثل ذلك ما استشهدت ابنة عثمان ﷺ بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [لمعارج: ١٩-٢١]، فبعد أن ذكرت ما عاشه المتمردون من خوف من شدة عمر ﷺ وما ظفروا به من رغد العيش، وسعة الدنيا في عهد عثمان ﷺ أصبحوا يتنمرون، قالت

(١) الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، سامية الدريدي، (ص٢٣٧).

(٢) نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، الحسين بنو هاشم، (ص٨٤).

قبلها: «**حتىٰ إذا عاد الأمر فيكم، ولكم، وإليكم، في مونِقَةٍ من العيش عرقها وشيج، وفرعها عميم، وظلها ظليل، تتناولون من كثب ثمارها أنَّىٰ شئتم رغدًا، وجلبت عليكم عشارُ الأرض دررًا، واستمرأتم أكلكم من فوقكم ومن تحت أرجلكم من خصب غدق وامق شرق....، ونسيتم قول الله** ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩-٢١] **فلا يهنئكم الظفر**»[1]؛ لتؤكد وجود انتظام واطراد لما توفره الآية الكريمة من تجسيد وتثبيت لقاعدة طبيعة الإنسان، وما جبل عليه «**بخيل منوع للخير، جَزُوع إذا نزل به البلاء، فهذا الهلوع إذا قلّ ماله وناله الفقر والعدم فهو جزوع من ذلك، لا صبر له عليه**»[2].

فهي ترفض كون حالة المتمردين حالة خاصة؛ لتكبّرهم وقت النعمة، وهلعهم وقت الشدّة. فهي مرتبطة بالسياق الذي حدثت فيه، بل هي تسعىٰ إلىٰ المرور من حالة خاصة إلىٰ قاعدة عامة، هي: جشعهم وعدم قناعتهم، وهذا متأصل فيهم، وهذا هو المقصد من الحجاج بالمثال.

٣- تأسيس الواقع بوساطة التمثيل:

الاستدلال بالتمثيل «طريقة حجاجية تعلو قيمتها علىٰ مفهوم المشابهة المستهلك، إذ لا يرتبط التمثيل بعلاقة المشابهة، وإنما يرتبط بتشابه العلاقة بين أشياء ما كان لها أن تكون مرتبطة، ويتضح أنّ التمثيل يهتم بتشابه العلاقات بين الأطراف المتباعدة، وليس علاقة مشابهة بينهما، كأن نقول: إن العلاقة بين (أ) و(ب) تشبه العلاقة بين (ج) و(د)، فنحن عند علاقتين متشابهتين، فبين الثنائيتين (أ-ب)، وهو ما سماه بيرلمان بالتيمة (موضوع)، والثنائي (ج-د)، ويسمىٰ (ج) الحامل أو الرافعة. فنحن نريد إبرز الموضوع أو التيمة من خلال الحامل، وكلاهما «يكونان من

(١) بلاغات النساء، ابن طيفور، (ص٧٣).

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، (٢٣/ ٦١١).

مجالين مختلفين، فنحن أمام إعادة صياغة، ووضع لعلاقة محدودة، وقد تكون خفية»[1].

ونستنتج أن المقصود بهذا ليس التشبيه المفرد العادي، بل المراد تشبيه التمثيل الذي يأتي وجه الشبه به عن علائق مركبة من هيئة مجتمعة لأطراف مختلفة تجمعها تشابه العلاقة[2].

ومثال ما كان بالحجاج بالتمثيل قول ابنة عثمان: «**فأثبتوا علىٰ الغرز أرجلكم، فقد ضللتم هداكم في المتيهة الخرقاء، كما أضل أدحية الحل، وسيعلم كيف تكون إذا كان الناس عباديد**»[3].

فقد شبه تشرذمهم وخوفهم وسلبيتهم التي ستلحق بهم بعد مقتل عثمان، وضياعهم بصغير النعامة الذي خرج من بيضته، وضلّ.

فتشرذمهم وضعفهم = (أ) بعد مقتل عثمان ﷺ من قبلهم (ب)

كطفل النعامة الصغير (ج) الذي ضيع البيضة التي تحميه (د)، فتشابه العلاقة هو التشرذم والضياع؛ لفقدان الحامي، فالصورتان بعيدتان غير أن بينهما تشابهًا مركبًا عبر علاقات متصلة، سمح السياق بتركيبها؛ مما أدّىٰ إلىٰ نتيجة واحدة في كلٍّ منهما، فالجمع بين المحسوسات المرئية والأمور العقلية – لا سيما المستقبلية – أداة داعمة للحجاج. فالتفاعل بين (أ) و(ج) هنا سلبي؛ لسلبية الصورة الأصلية وبما أن المشاهد هنا سلبية فما اكتسبه الموضوع من الحامل السلبية.

٤ – تأسيس الواقع بواسطة الاستعارة:

لا ينظر بيرلمان إلىٰ الاستعارة علىٰ أنها تؤدي وظيفة جمالية فحسب، بل لكونها تؤدي وظيفة حجاجية إقناعية عبر نقل صفة إلىٰ صفة، وجعلهما شيئًا واحدًا كما عدّها البلاغيون

(١) نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، الحسين بنو هاشم، (ص٩٠).

(٢) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، عبدالمتعال الصعيدي، (٢/ ٤٧-٤٨)، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب، (٢/ ١٨٢).

(٣) بلاغات النساء، ابن طيفور، (ص٧٣).

العرب[1]. فإذا كان التمثيل يعنىٰ بتشابه علاقة بين الموضوع (أ-ب) والحامل (ج-د)، فإن الاستعارة تمثيل مكثّف مضغوط؛ لأنه موجز بحذف أحد طرفي التشبيه، ولما فيها من الاندماج الحاصل في عناصر الموضوع[2] لدرجة أنه لا يعرف الحامل من الموضوع؛ لانصهار الطرفين. ولتقريب الصورة؛ نقول في: الشيخوخة للحياة هي ما يشكّله المساء بالنسبة إلىٰ النهار.

الشيخوخة (أ) والحياة (ب) = الموضوع.

المساء(ج) بالنسبة إلىٰ النهار (د)= الحامل.

هذه المعادلة في التمثيل.

أمَّا في الاستعارة: فتكون المعادلة في عبارة (شيخوخة المساء)، (مساء الحياة)، (الشيخوخة مساء).

(أ) منسوب إلىٰ (د) و(ج) منسوب (ب)، والأخيرة (أ) منسوب إلىٰ (ج)[3].

ومما يندرج تحت هذا ما ذكرته امرأة عثمان ﷺ في بيتيها الشعريين اللذين ارتجلتهما:

«أيـا قـبرَ النبـيِّ وصاحبـيه * عُـذَيرِي إنْ شـكوتُ ضـياعَ ثـوبِي

فـإنَّي لا سـبيلَ فتنـفعوني * ولا أيديكـمُ في مَنْـعِ حَـوبِي»[4]

فتشبيهها لفقدانها (أ) لزوجها (ب) بمن فقد (ج) ثوبه (د) فقد ستره، فتشابه العلاقة بين الموضوع، والحامل وقد انصهر الموضوع في الحامل، فقد حُمِّل السياق بناءً حجاجيًا مكثفًا لهم من ضياع سترها، وبذاك تشكو إلىٰ النبي ﷺ وصاحبيه مع يقنيها أنّ لا قدرة لهم في نفعها، غير أنها تُلمحُ للخصم بأن خصيمكم في هذه الفعل لست أنا، بل النبي ﷺ وصاحبيه ﷺ وأعظم بأن

(١) حجاجية الاستعارة عند عبدالقاهر الجرجاني، محمد عبدالسلام سالم، يزيد عابي، (ص٨، ٩).

(٢) في نظرية الحجاج دارسات وتطبيقات، عبدالله صولة، (ص٦٠).

(٣) نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، الحسين بنو هاشم، (ص٩١).

(٤) بلاغات النساء، ابن طيفور، (ص٧٢).

يكون خصيمهم النبي ﷺ وصاحبيه. وهذا الصهر الاستعاري «يهدف إلىٰ خلق انفعال شعري يفتح مجالًا للموضوع والحامل بشكل مناسب؛ حيث يصبح المشبّه والمشبّه به غير قابلين للانفصال»[1].

بين فقد محبٍّ كان سترًا وكفاية وبين ثوب يستر المرء.

والجميل في حجاجها الانصهار الذي وقع بين طرفي التشبيه، حتىٰ كأنك لا تفرق بينها؛ ليكتسب اللاحق بالأول معنىٰ سلبيًا، وبهذا يزهر حجاجها بشكل محسوس مجسدًا قبح الفعل المقتبس من قبح المشبه به.

٥- الاتصال الرمزي:

من وجوه الاتصال التواجدي الرمز، والترابط فيه تواجدي لا تتابعي؛ إذ إن قيمة الرمز ودلالته تنبعان مما يوجد من ترابط واتصال تزامني بين الرمز والمرموز إليه، فالعلاقة بينهما علاقة مشاركة: وهي حسب ما يفهم من حديث بيرلمان أنه عكس العلامة التي تكون العلاقة بين طرفيها اعتباطية؛ لذا يجب علىٰ المتحدث انتقاء الرمز، وأن يكون مصدر إجماع وتقدير لدىٰ الموجَّه إليهم الخطاب، «فمن الضروري لدىٰ صانع الحجاج أن يدرك مدىٰ اكتساب شيء من طبيعته الرمزية. فالرمز خاص بثقافة ما، ولا يصلح أن يستخدم في مخاطبة جمهور عام، وهو ما يؤكد بعده اللاعقلي»[2]. فهو أمر روحي عاطفي ينبع من قداسة شيء في بيئة معينة، فنجد مثلا استرجال زوج عثمان ﷺ في بيتيها الشعريين عندما قالت: «**أيا قبر النبي وصاحبيه**». ومما لا شك فيه أن النبي ﷺ عند المسلمين منهج للدين والحياة، وصاحبيه أبا بكر وعمر ﷺ يُعدّان رمزًا لخير من يمثّل هدي النبي ﷺ، وبذا تقيم حجاجًا صلبًا عليهم بأنَّ ما قمتم به مخالف لعرف

(١) نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، الحسين بنو هاشم، (ص٩٣).

(٢) في نظرية الحجاج دارسات وتطبيقات، عبدالله صولة، (ص٥٣، ٥٤).

الدين الذي احتجيتم به، ولا أدلَّ علىٰ ذلك من أن النبي ﷺ لو رأىٰ ما فعلتم وصاحباه لأنكروا ذلك بأشدّ ما يكون النكران.

ولا شك في أن براعة الاحتجاج لبنية الوقع وتأسيس قاعدة من مُستجلبات خارجية تشمل مفاهيم شائعة أو أفعال خاصة لقوتها تؤسس فكرة عامة تسخر لإقناع الآخر بالفكرة المرادة أو شواهد جاهزة لها عظمتها أو رموز تشمل كون خاص من المعتقدات كانت حاضرة في الخطبتين حيث إن إقناع خصوم متمردين يحتاج إلىٰ واقع مؤسس يشكل مطرقة لفكرهم الضال.

***

المبحث الثالث
البينة الحجاجية الانفصالية

إذا كانت التقنيات السابقة تعتمد علىٰ الوصل عن طريق الربط بين عناصر متباعدة واقعيًا، فتوجد طريقة حجاجية أخرىٰ تقوم علىٰ الفصل؛ إذ يعمد فيها إلىٰ الفصل بين حقيقة الأمر وظاهره، وتؤدي الطرائق الانفصالية في الدرس الحجاجي وظيفة الفصل بين المفاهيم، ويحدث الانفصال الحجاجي في «العناصر التي تؤلف وحدة يتم تجزئتها لغايات حجاجية، ومن ذلك توظيف عناصر الربط والوصل والعطف النحوي في الخطاب الحجاجي، واستخدام جمل اعتراضية، تحمل أفكارًا معينة مؤكدة، أو ناقضة لما قبلها، وغالبًا ما يستخدم ذلك في الحدود؛ لأنَّ الهدف من الفصل بين الحد الواحد، أو البنية القولية هو إسقاط العنصرين المفصولين، ثم التأكيد علىٰ الباقي منها، ويكون الفصل - أيضًا - باستخدام **أفعال يقينية**، مثل: يزعم، ويظن، ويخال، ويشك، ويمكن القول: إن هذه التعابير تستمد مظهرها الحجاجي من فصلها داخل المفهوم الواحد بين ما هو ظاهري، وبين ما هو حقيقة؛ ليصبح الحدّ (١) والحدّ (٢)؛ إذ إنَّ الأول ما تصادفه الحواس، ويراه الفكر، وهو الحقيقة عينها»[1]. والحجج ذو التقنية الانفصالية لم تحظَ بحديث مفصّل عند بيرلمان، كما في التقنية الاتصالية.

ومثال البنية الحجاجية الانفصالية ما ورد في خطبة قالت عائشة بنت عثمان ﵂: «**فانتضيتم سيوفكم، وكسرتم جفونكم. وقد أبىٰ الله أن تُشام سيوف جُرّدت بغيًا وظلمًا، ونسبتم قول الله ﷻ:** ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج:١٩-٢١] **فلا يهنئكم الظفر، ولا يستوطن بكم الحصر، فإن الله بالمرصاد، وإليه المعاد، والله ما يقوم إلا علىٰ**

(١) نظرية الحجاج دراسة وتطبيقات، عبدالله صولة، (ص٦١، ٦٢، الحجاج في النص القرآني «سور الحواميم أنموذجًا»، هاني يوسف أبو غليون، (ص٦٤، ٦٥.

رجلين، ولا ترن القوس إلا علىٰ سيتين[1]، فأثبتوا علىٰ الغرز أرجلكم، فقد ضللتم هداكم في المتيهة الخرقاء، كما أضل أدحية الحسْقل»[2].

الشاهد: «**والله ما يقوم الظَّليم إلا علىٰ رجلين، ولا ترن القوس إلا علىٰ سيتين**».

فالمفهوم الواحد في النص حقيقة تمردكم، وأنكم ترونه حقًا مكتسبًا، لا تعاقبون عليه من قتل خليفتكم، وهذا مظهر خادع زائف برَّاق. أمَّا الحدُّ الثاني فهو نتيجة فعلتكم، فمردُّ الظلم وخيم، وهذه هي الحقيقة التي لا تتغير.

فطريقة الفصل بين الحدين قوّىٰ الاقتناع لدىٰ السامع ببطلان الحد الأول من قناعة أن ما أقدمتم عليه من تمرد حق مكتسب لكم، وزاد من إحداث القطيعة بين الحدّين بتوظيف العامل الحجاجي (ما-إلا)، وذلك بقصر مرجع عملكم ومآله إلىٰ الخيبة والخزي، وقد أدّىٰ الفصل اللغوي ذلك قولها: «**والله ما يقوم الظَّليم إلا علىٰ رجلين، ولا ترن القوس إلا علىٰ سيتين**»، فـ(الظَّليم) ذكر النعام، والسْيتان الحدُّ الأعلىٰ، والحد الأدنىٰ عند ميلة القوس، ولما عليه النعام من جبن وخوف وفزع يُشبَّه الرجل بالظَّليم؛ لجبنه، ولما عرفت عليه القوس من شدة الرمي وكسرها للأعداء. فهي تؤكد وجود مسلمات لا شك فيها، كما في ذكر النعام الذي يمشي علىٰ رجلين وكما في القوس التي قوامها (سيتان) تمامًا، كما في نهاية الظلم التي لا جدال فيها، فالحقائق لا تتغير كما أن للقوس طرفين ولصغير النعامة رجلين.

---

(١) الظَّليمُ جُفولًا: أسْرَعَ، وذهَبَ في الأرضِ، والظَّليمُ يَنْفِرُ من كلِّ شيءٍ، وأَجَّ الظَّليمُ يَئِجُّ ويَؤُجُّ أَجًّا وأَجِيجًا: سُمع حَفيفُه في عَدْوِه؛ لسان العرب أجج، ورجل هَيْق: يشبَّه بالظَّلِيم لِنفاره وجُبْنه، لسان العرب، ابن منظور، (٢/ ٢٩٨)، (٣/ ١٦٦)، (٤/ ٣٩٤). سِيَةُ القَوْسِ، طَرَفُ قابِها، وقيل: رأْسُها، وقيل: ما اعْوَجَّ من رأْسِها، وهو بعدَ الطَّائِفِ، والنَّسَبُ إليه سِيَوِيٌّ. الأَصمعي: سِيةُ القَوْسِ ما عُطِفَ من طَرَفَيْها، ولها سِيَتَان) لسان العرب، ابن منظور، (١٤/ ٤١٦)، الحسقل الصغير المولود، لسان العرب، ابن منظور، (١١/ ١٥٣).

(٢) بلاغات النساء، ابن طيفور، (ص٧٣).

ولـ«لكن» الاستدراكية مجال واسع في الحجاج بكونها إحدىٰ الطرائق الانفصالية، وفي بنية (لكن) الاستدراكية حجاج يسمىٰ المربعات الحجاجية، فنصطلح علىٰ تسمية القضية الواردة قبل (لكن) بـ(ق) (١)، وما بعد (لكن) بـ(ق) (٢)، ومن (ق) (١) نستنتج: (ن)، ومن (ق ٢) نستنتج عكس (ن)؛ ليصبح عندنا:

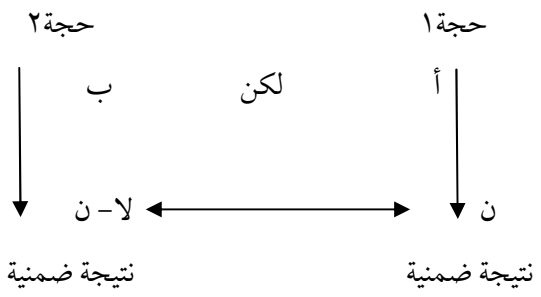

يشير الرمز(<) إلىٰ الحجة الأقل قوة، أي: (أ) أقل قوة من (ب)[1].

مثال: قوله تعالىٰ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر:٥٧].

(ق١)= لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس.

(ق٢)= أكثر الناس لا يعلمون.

(ن) الله قادر علىٰ كل شيء (-ن) ليس لله قدرة، تنزه الله عن ذلك.

إذن = الله قادر علىٰ بعث الناس؛ لأن خلق الكون أعظم من إعادة بعثهم.

وبذلك يتضح قوة الرابط «لكن» بأنَّه يعطي المعلومات كأنها حجج، وبذلك تظهر النتائج

(١) الخطاب الحجاجيّ في المقالات الإصلاحية لمحمد البشير الإبراهيمي مقاربة لغوية دلاليّة، محمد عطا الله، (ص١٢٣- ١٢٤).

الضمنية للأفعال المتناقضة فهي تحوي السلب، والإيجاب الخفي، وبذلك أبطلت التوهم بأقل العبارات، وبهذا شملت أكثر من مستوىٰ تفكيري لدىٰ المتلقين بين من يؤمن بما قبل «لكن»، ومن يؤمن بما بعدها، وبذلك تكتسب «لكن» قيمة حجاجية عالية باقتضابها وضمنيتها.

ومثال آخر لهذه القيمة الحجاجية قول عائشة بنة عثمان ﷺ: «**أفنيتْ نفسه وطُل دمه في حرم رسول الله ﷺ ومنع من دفنه اللَّهم ولو يشاء لامتنع، ووجد من الله ﷻ حاكمًا ومن المسلمين ناصرًا ومن المهاجرين شاهدًا حتىٰ يفيء إلىٰ الحق من سدِر عنه أو تطيح هامات، وتُفرىٰ غلاصم، وتخاض دماء، ولكن استوحشَ مما أنستم به، واستوخم ما استمرأتموه. يا من استحل حرم الله ورسوله واستباح حماه لقد كره عثمان ما أقدمتم عليه، ولقد نقمتم عليه أقل مما أتيتم إليه، فراجع فلم تراجعوه، واستقال فلم تقيلوه**»[1].

الشاهد: ولكن استوحشَ مما أنستم به واستوخم.

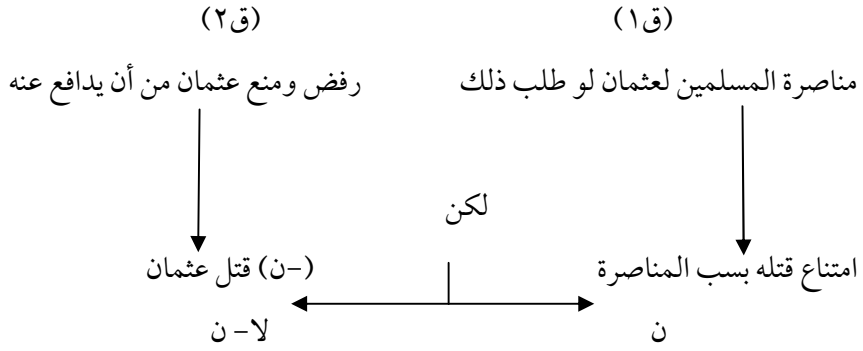

والعلاقة بينها تعارض وتضارب، فقد فصلت بين المفهوم الواحد وهو قوتهم واستقواؤهم علىٰ عثمان ﷺ، فقد رسمت مشهدين: مشهدا لو سَمح عثمانُ ﷺ للمسلمين أن يدافعوا عنه، ومشهدًا آخر: وهو الذي وقع منع عثمان ﷺ أن يدافع عنه أحد، فالنتيجة متضادة مما يدحض

(١) بلاغات النساء، ابن طيفور، (ص٧٠).

عليهم حجتهم باستقوائهم وسيطرتهم.

* مثال آخر:

قول زوج عثمان ﷺ: «**وهل تسمو هممكم إلىٰ منازعة، ولولا تيك لكان قسمه خسيسًا، وسميه تعيسًا، لكن بدأ بالرأي، وثنّىٰ بالقضاء، وثلث بالشورىٰ، ثم غدا سامرًا مُسلطًا درته علىٰ عاتقه، فتطأطأتم له تطأطؤ الحِقة**»[1].

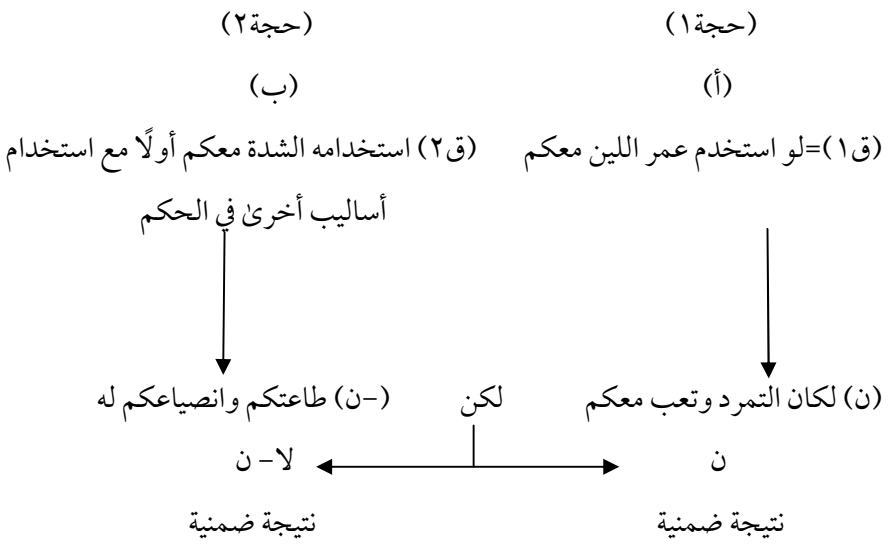

وبذلك يتضح لنا من الرابط «لكن» تقابلية المشهدين، مشهد وهو عدم استخدام عمر ﷺ الشدة معكم؛ ليأتي تمردكم عليه، وهو من الممكن أن كان حدوثه، إلا أنه لم يقع، ومشهد واقع: وهو استخدامه ﷺ الشدة معكم وطاعتكم له، وبذلك تبرز «لكن» بكونها أداة حجاجية، تفصل بين حدين بطريقة إعادة المشهد المستدرك باستدراك ما لم يقع في الحد الأول، ووقع في الحد الثاني إيجابًا، أو سلبًا، وبذا تكون «لكن» ضمنية الحجاج مقتضبة النسق جامعة أكثر من مشهد

(١) بلاغات النساء، ابن طيفور، (ص٧٣).

تفكيري، وفي ذاك براعة حجاجية تستحق الدراسة وحدها.

وفي نهاية هذا المبحث نلحظ أن الحجاج بالفصل بين عناصر الواحد وهو ما يسمىٰ بالطرائق الانفصالية أكثر ميلا للفكر المنطقي المربوط بأدوات لغوية وسياقات المعرفة النصية من أفعال يقينية أو استثناء أو استدراك وغيره من أدوات اللغة، ونرىٰ هذه الطريقة هي الأقل حظا في الخطبتين ولعل كونها تعتمد علىٰ حدين ظاهر ومخفي مما يحتاج إلىٰ نخبة مستمعة وهذا لا يستحب الإكثار منه عندما يكون الجمهور كونيا مفتوحا، كما في الخطبتين، لاختلاف الحدود بين الأفهام وتشعبها مما يضيع القضية المراد المحاججة عنها.

***

الخاتمة

وفي نهاية هذه الدراسة، نخلص إلىٰ عدد من الاستنتاجات مفادها:

- ثراء البنية الحجاجية في الخطبتين، وانفتاحهما في الاحتجاج، فقد اعتمدتا علىٰ أكثر من طريقة في الحجاج من حجج منطقية تعتمد علىٰ الصرامة الهادفة للإقناع، في ذات الوقت نجد الثراء الحجاجي مستندًا إلىٰ بنية الواقع ومقارعة الواقع بالواقع، كما في الثراء الحجاجي في الحجج المؤسسة علىٰ الواقع، فقد ارتكزت حججهما علىٰ جملة من المعارف الراسخة في الذاكرة الجماعية المخاطبة التي لها عصا السلطة علىٰ العقل الجمعي؛ لذا كثُرت الحجج شبه المنطقية والرياضية؛ لأنها الأقرب إلىٰ طبيعة المتمردين المتلونة، كما كان للتتابعية بأنواعها القدح المعلىٰ؛ لقرب طبيعتها من توالي الأحداث المنوطة بالأسباب، غائية كانت أم غير غائية، وذلك بما يتناسب مع الأحداث المتسارعة؛ مما جعل البنية الحجاجية عقلانية الرؤيا، في حين كانت الحجج المبنية علىٰ الطريقة التي تفصل بين الشيء وأجزائه أقل حضورًا؛ وذلك لأنَّ الغرض من الحجاج بيان تناقضاتهم التي تجمع أمورًا متباعدة، فكانت الحجج المبنية علىٰ الحجج الانفصالية أولىٰ وأقدر علىٰ تمثيل ذلك.

- حمل الحجاج في كلتا الخطبتين خطابًا مباشرًا للمخالفين من الخصوم وغير الخصوم، بخاصة في خطاب ابنته الذي يوحي ظاهره أنه موجه للمتمردين، وهو كذلك، غير أن هناك جانبًا مسكوتًا عنه، في رسالة إلىٰ علي ﷺ بأن يُشدد المعاملة عليهم، وهذا أيضًا في حجاج زوجته، غير أنها كانت أقلَّ صراحة من ابنة عثمان - ﷺ أجمعين - عندما قالت: **(يا من استحلّيتم)**، واكتفت بكون المتلقين من فئات ذات اتجاهات فكرية متنوعة؛ لينتج عنه رسائل حجاجية تأخذ أشكالًا عدّة؛ فهي للمتمردين والقتلة تهديد وتقريع، ولغيرهم تحفيز واستشعار بعظم المصيبة، والمطالبة الخجولة بالثأر لمقتل زوجها. واكتفت بتشهيد النبي ﷺ وصاحبه.

– ظهر مفهوم تعدد الأصوات الحوارية المحاججة في النصين؛ إذ اتضح وجود أمور متفق عليها بين الخطيب وجمهوره، وكان هذا أكثر ظهورًا في خطبة زوج – عثمان ﷺ – حين أطالت في ذكر محاسنه ثم تشهيد النبي ﷺ وصاحبيه عليهم الصلاة والسلام، في ذات الوقت ثمة أمور مختلف عليها، ومثال تعدد هذه الأصوات حين تحدثت عن لؤم المتمردين وسوء نيتهم إيعازا لعلي ﷺ باستخدام الشدة فظاهر الكلام تعنيف للمتمردين ورسالة للخليفة القادم وربما تكون حتىٰ رسالة للمجتمع المدني بآلية التعامل مع المتمردين لأن الراوي للخطبة قال اجتمع الناس حوله ولم يحدد[1]، فكان المخاطب متعددًا؛ أحدهم: مخالف وهو درجات، والآخر مخاطب غير مخالف وهم درجات أيضًا. وبذلك يتبين أنهما أرادتا العبور عبر ضمير الخطاب إلىٰ عقل الخصم الباطن؛ للوصول إلىٰ تصور يدعم الحجاج نفسه.

– اعتمدت علىٰ جدليتين (الطاعة والعصيان)، و(اللين والشدّة)، فقد أطاعوا مع الشدة، وعصوا مع اللين، وهذه ازدواجية متأصلة في الخصم، فطاعتهم لعمر ﷺ رغم شدّته وعصيانهم لعثمان رغم لينه معهم ﷺ، وفي ذا تقاطعات لأفعال، يتوقع منها العكس، فالعصيان مع الشدّة، واللين مع الطاعة، كل هذا ليوصلنا إلىٰ حققية وخبيئة أنفسهم الدنيئة، وفي هذه الجدلية الحجة الكبرىٰ علىٰ المخالفين، وعلىٰ بطلان ما فعلوه، وما سعوا له.

– علىٰ الرغم من هول الحدث وصعوبة الموقف خاصة أنَّ الباث في الخطبتين تربطهما قرابة وطيدة بعثمان المقتول ﷺ، حتىٰ إن زوج عثمان ﷺ شهدت المقتل والتنكيل به والمحنة، إلَّا أنَّ الخطبتين اتسمتا بالعقلانية والبعد عن الألفاظ الجارحة، فاتجهتا صوب اللوم والتقريع؛ للإقناع عبر سلوكهما ألفاظًا معتدلة رغم حساسية الموقف. وقد كانت العقلانية أكثر ظهورًا في

(١) قال الراوي: (كان علي بن أبي طالب في ماله في ينبع فلما قتل عثمان بن عفان خرج إليه عنق من الناس يتسارعون إلىٰ علىٰ تشتد بهم دوابهم استطاروا فرحا واستفزهم الجذل حتىٰ قدموا به فبايعوه، فلما بلغ لك عائشة بنت عثمان صاحت:...)، بلاغات النساء، ابن طيفور، (ص٧٢).

خطبة زوجته رغم أنها حضرت الموقف، فلم تستدعِ كلمة ثارات، كما أنّها لم تتوجه بخطاب مباشرٍ لهم، وكأنها لا ترىٰ فيهم أهلًا للخطاب، فخطابها عام للموجودين في المسجد النبوي.

- يتضح أهمية دور المرأة الذي أدّته في التوجيه وقول كلمة الحق؛ للحفاظ علىٰ الأمن الفكري والسلم المجتمعي، وبأنها لم تقف عنصرًا متلقيًا، بل كانت موجهًا ومبادرًا، فضلًا عما امتاز به خطابهما من القوة والاتزان في وقت عَظُمَ فيه الجرم، وهذا عكس ما عُرفت به المرأة من الانفعال والضعف.

وبعد ذلك أوصي:

- بالبحث في البنية الحجاجية وربطها بآليات اللغة وبدائعها، بخاصة في النصوص التي وقعت وسط أحداث مهمة نراها تتكرر في أفكار المتطرفين اليوم.

- وضوح أهمية البحث في الكلمة وأثرها في تاريخ المجتمعات أمنيًا، وما للكلمة من دور في إعادة فهم بعض مواطن التاريخ.

- تفعيل التنظير الحجاجي الجديد عبر دراسة نصوص من إرثنا العربي، فدرسنا العربي أكثر من النقل والتطبيق من النهج الغربي، إلا أن الدرس التطبيقي لنصوصنا العربية يظل في حيز القلة، ولا يخفىٰ أهمية الحجاج والإقناع، بخاصة أننا في عصر تعددت فيه الآراءكما لا يخفىٰ حاجتنا إلىٰ فهم نصوص أدبنا وفق معطيات النقد الحديث وأدواته علاوةً علىٰ أدوات النقد القديم ومعطياته.

***

قائمة المصادر والمراجع

- **أعلام النساء بين عالمي العرب والإسلام، كحالة**، عمر رضا، ط:١، دمشق، سورية، مؤسسة الرسالة، ١٩٥٩م.
- **الأعلام، الزركلي**، خير الدين بن محمود، ط:١٥، بيروت، لبنان، دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م.
- **أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلىٰ اليوم**، صمود، حمادي، د. ط، منوبة، تونس، منشورات كلية الآداب، ١٩٩٨م.
- **البداية والنهاية**، ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء، تحقيق: عبدالله عبدالمحسن التركي، ط:١، مصر، دار الفكر، ١٩٩٨م.
- **بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة**، الصعيدي، عبدالمتعال، د. ط، القاهرة، مصر، مكتبة الآداب، ١٩٩١م.
- **بلاغات النساء وطرائف كلامهن وملح نوادرهن وكلام ذوات الرأي منهن**، ابن طيفور، أحمد بن الطاهر، ط: د. ت، مصر، مطبعة والدة مدرسة عباس الأول، ١٩٠٨م.
- **البلاغة بين التخييل والتداول**، العمري، محمد، ط:٢، المغرب، أفريقيا الشرق، ٢٠١٢م.
- **البلاغة والاتصال**، عبدالمجيد جميل، ط:١، القاهرة، مصر، دار غريب للطباعة والنشر، ٢٠٠٠م.
- **البنية الحجاجية في قصة سيدنا موسىٰ عليه السلام**، عرابي امحمد، ماجستير، وهران، الجزائر، جامعة السانية، ٢٠٠٨م-٢٠٠٩م.
- **تاريخ الرسل والملوك**، الطبري، محمد بن جرير، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط:٢، بيروت، لبنان، دار التراث، ١٣٧٨هـ.
- **تاريخ نظريات الحجاج**، برتون، فيليب، جويتيه، جيل، ترجمة: محمد صالح ناجي الغامدي، ط:١، جدة السعودية، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبدالعزيز، ٢٠١١م.
- **تحليل الخطاب وفق استراتيجية الإيتوس في المشروع البلاغي لمحمد مشبال**، عبدالصمد، غالم، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، المركز الجامعي لتمنراست، الجزائر، المجلد: ٨، العدد: ٥، ٢٠١٩م، مجلة نص سنوية محكمة.

- **التداولية والحجاج مداخل ونصوص**، الحباشة، صابر، ط:١، دمشق، سوريا، دار صفحات للدراسات والنشر، ٢٠٠٨م.
- **التداولية من أوستن إلىٰ غوفمان**، فيليب بلانشيه، ط:١، سورية، دار الحوار للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧م.
- **جامع البيان في تأويل القرآن**، الطبري، محمد بن جرير، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط:١، بيروت، لبنان، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٠م.
- **الحجاج بين الدرس البلاغي العربي والدرس اللساني الغربي**، عكاشة، نور الدين، دكتوراه، الجزائر، جامعة محمد لمين دباغين سطيف، ٢٠١٥-٢٠١٦م.
- **الحجاج في النص القرآني «سور الحواميم أنموذجًا»**، أبو غليون، هاني يوسف، ماجستير، الأردن، جامعة مؤتة، ٢٠١٨م.
- **الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية**، علوي حافظ إسماعيل، ط:١، بيروت، لبنان، درا الروافد ابن النديم للنشر والتوزيع، ٢٠١٣م.
- **حجاجية الاستعارة عند عبدالقاهر الجرجاني**، سالم، محمد عبدالسلام، عابي، مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب، الجزائر، جامعة محمد بوضياف المسيلة، العدد الرابع، ٢٠١٨م.
- **خصائص الحروف العربية**، سورية، عباس حسن، ط: د. ت، اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٨م.
- **الخطاب الحجاجيّ في المقالات الإصلاحية لمحمد البشير الإبراهيمي مقاربة لغوية دلاليّة**، عطاالله، محمد، ماجستير، الجزائر، جامعة الحاج لخضر باتنة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الجزائر، ٢٠١٢م.
- **الخطابة**، طاليس، أرسطو، عبد الرحمن، ترجمة: بدوي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٦م.
- **شرح التسهيل تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد**، ناظر الجيش، محمد بن يوسف بن أحمد، دراسة وتحقيق: علي محمد فاخر وآخرون، ط:١، القاهرة، مصر، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ١٤٢٨هـ.

- **عندما نتواصل نغير، مقاربة تداولية معرفية لأليات التواصل والحجاج**، عشير، عبدالسلام، ط:١، المغرب، أفريقيا الشرق، ٢٠٠٦م.
- **في خطابة أرسطو الباتوسية**، الولي، محمد، مجلة علامات، المغرب، العدد:٢٦، ٢٠٠٦م.
- **فن تحليل الخطاب**، عبيد، حاتم، ط:١، الأردن، دار ورد للنشر والتوزيع، ٢٠١٣م.
- **في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات**، صولة، عبدالله، ط:١، تونس، دار مسكيلياني للنشر والتوزيع، ٢٠١١م.
- **مدخل إلىٰ الخطابة**، روبول، وليفي ترجمة: رضوان العصبة، ط:١، حسان الباهي، الدار البيضاء، المغرب، أفريقيا الشرق، ٢٠١٧م.
- **معاني النحو**، السامرائي، فاضل محمد، ط:١، عمان، الأردن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٠م.
- **معجم المصطلحات البلاغية وتطورها**، مطلوب، أحمد، ط:١، بغداد، العراق، المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٧م.
- **نظرية المساءلة والبلاغة لميشال مايير مقاربة في الأصول والأسس والتمثلات**، فرحان، نعمة مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، جامعة بابل، العراق، المجلد الرابع، الإصدار: ٤٣، ٢٠١٩م.
- **نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان**، بنو هاشم، الحسين، ط:١، بيروت، لبنان، الكتاب الجديد، ٢٠١٤م.

* * *

Bibliography

- A‘lām al-nisā’ bayna ‘ālamī al-‘Arab wa-al-Islām, Kaḥḥālah, ‘Umar Riḍā, Ṭ: 1, Dimashq, Sūrīyah, Mu’assasat al-Risālah, 1959m.
- Al-A‘lām, al-Ziriklī, Khayr al-Dīn ibn Maḥmūd, Ṭ: 15, Bayrūt, Lubnān, Dār al-‘Ilm lil-Malāyīn, 2002M.
- Ahamm naẓarīyāt al-Ḥajjāj fī al-taqālīd al-Gharbīyah min Arisṭū ilá al-yawm, Ṣammūd, Ḥammādī, D. Ṭ, Manūbah, Tūnis, Manshūrāt Kullīyat al-Ādāb, 1998M.
- Bughyat al-Īḍāḥ li-talkhīṣ al-Miftāḥ fī ‘ulūm al-balāghah, al-Ṣa‘īdī, ‘Abd-al-Muta‘āl, D. Ṭ, al-Qāhirah, Miṣr, Maktabat al-Ādāb, 1991m.
- Balāghāt al-nisā’ wa-ṭarā’iq kalāmihinna wa-mulaḥ nawādirihinna wa-kalām dhawāt al-ra’y minhunna, Ibn Ṭayfūr, Aḥmad ibn al-Ṭāhir, Ṭ: D. t, Miṣr, Maṭba‘at Wālidat Madrasat ‘Abbās al-Awwal, 1908m.
  Alblaghh byn altkhyyl waltdawl, al'emry, mhmd, t:2, almghrb, afryqya alshrq, 2012m.
- Al-Balāghah wa-al-Ittiṣāl, ‘Abd-al-Majīd Jamīl, Ṭ: 1, al-Qāhirah, Miṣr, Dār Gharīb lil-Ṭibā‘ah wa-al-Nashr, 2000M.
- Al-Binyah al-ḥijājīyah fī qiṣṣat sayyidinā Mūsá ‘alayhi al-Salām, ‘Urābī Imḥammad, mājistīr, Wahrān, al-Jazā’ir, Jāmi‘at alsānyh, 2008m-2009m.
- Tārīkh al-Rusul wa-al-mulūk, al-Ṭabarī, Muḥammad ibn Jarīr, taḥqīq: Muḥammad Abū al-Faḍl Ibrāhīm, Ṭ: 2, Bayrūt, Lubnān, Dār al-Turāth, 1378h.
- Tārīkh naẓarīyāt al-Ḥajjāj, Barton, Fīlīb, jwytyh, jīl, tarjamat: Muḥammad Ṣāliḥ Nājī al-Ghāmidī, Ṭ: 1, Jiddah al-Sa‘ūdīyah, Markaz al-Nashr al-‘Ilmī, Jāmi‘at al-Malik ‘Abd-al-‘Azīz, 2011M.
- Taḥlīl al-khiṭāb wafqa istirātījīyah al’ytws fī al-mashrū‘ al-balāghī li-Muḥammad Mashbāl, ‘bdālṣmd, Ghālim, Majallat Ishkālāt fī al-lughah wa-al-adab, al-Markaz al-Jāmi‘ī ltmnrāst, al-Jazā’ir, al-mujallad: 8, al-‘adad: 5, 2019m, Majallat naṣṣ sanawīyah Maḥkamat.
- Al-Tadāwulīyah wa-al-ḥijāj madākhil wa-nuṣūṣ, al-Ḥabāshah, Ṣābir, Ṭ: 1, Dimashq, Sūriyā, Dār Ṣafaḥāt lil-Dirāsāt wa-al-Nashr, 2008M.
- al-Tadāwulīyah min awstn ilá ghwfmān, Fīlīb Blānshīh, Ṭ: 1, Sūrīyah, Dār al-Ḥiwār lil-Nashr wa-al-Tawzī‘, 2007m.
- Jāmi‘ al-Bayān fī Ta’wīl al-Qur’ān, al-Ṭabarī, Muḥammad ibn Jarīr, taḥqīq: Aḥmad Muḥammad Shākir, Ṭ: 1, Bayrūt, Lubnān, Mu’assasat al-Risālah, 2000M.
- Al-Ḥajjāj bayna al-dars al-balāghī al-‘Arabī wa-al-dars al-lisānī al-gharbī, ‘Ukāshah, Nūr al-Dīn, duktūrāh, al-Jazā’ir, Jāmi‘at Muḥammad Limīn dyāghyn Siṭīf, 2015-2016m.
- Al-Ḥajjāj fī al-naṣṣ al-Qur’ānī «suwar alḥwāmym unamūdhajan», Abū Ghalyūn, Hānī Yūsuf, mājistīr, al-Urdun, Jāmi‘at Mu’tah, 2018m.
- Al-Ḥajjāj mafhūmuhu wa-majālātuh Dirāsāt Naẓarīyat wa-taṭbīqīyah, ‘Alawī Ḥāfiẓ Ismā‘īl, Ṭ: 1, Bayrūt, Lubnān, Dār al-Rawāfid Ibn al-Nadīm lil-Nashr wa-al-Tawzī‘, 2013m.

- Ḥijājīyah al-Isti‘ārah ‘inda ‘bdālqāhr al-Jurjānī, Sālim, Muḥammad ‘Abdussalām, ‘Ābī, Majallat al-‘Umdah fī al-lisānīyāt wa-taḥlīl al-khiṭāb, al-Jazā’ir, Jāmi‘at Muḥammad Būḍyāf al-Masīlah, al-‘adad al-rābi‘, 2018m.
- Khaṣā’iṣ al-ḥurūf al-‘Arabīyah, Sūrīyah, ‘Abbās Ḥasan, Ṭ: D. t, Ittiḥād al-Kitāb al-‘Arab, 1998M.
- Al-Khiṭāb alḥjājī fī al-maqālāt al-iṣlāḥīyah li-Muḥammad al-Bashīr al-Ibrāhīmī muqārabah lughawīyah dlālyyh, ‘ṭāāllh, Muḥammad, mājistīr, al-Jazā’ir, Jāmi‘at al-Ḥājj Lakhḍar Bātnah, Kullīyat al-Ādāb wa-al-‘Ulūm al-Insānīyah al-Jazā’ir, 2012m.
- Al-Khaṭābah, ṭālys, Arisṭū, ‘Abd al-Raḥmān, tarjamat: Badawī, Dār al-Shu’ūn al-Thaqāfīyah al-‘Āmmah, Baghdād, 1986m.
- Sharḥ al-Tas′hīl tamhīd al-qawā‘id bi-sharḥ Tas′hīl al-Fawā’id, Nāẓir al-Jaysh, Muḥammad ibn Yūsuf ibn Aḥmad, dirāsah wa-taḥqīq: ‘Alī Muḥammad Fākhir wa-ākharūn, Ṭ: 1, al-Qāhirah, Miṣr, Dār al-Salām lil-Ṭibā‘ah wa-al-Nashr wa-al-Tawzī‘ wa-al-Tarjamah, 1428h.
- 'Endma ntwasl nghyr, mqarbh tdawlyh m'erfyh lalyat altwasl walhjaj, 'eshyr, 'ebdalslam, t:1, almghrb, afryqya alshrq, 2006m.
- Fī Khaṭābah Arisṭū albātwsyh, al-Walī, Muḥammad, Majallat ‘Alāmāt, al-Maghrib, al-‘adad: 26, 2006m.
- Fann taḥlīl al-khiṭāb, ‘Ubayd, Ḥātim, Ṭ: 1, al-Urdun, Dār Ward lil-Nashr wa-al-Tawzī‘, 2013m.
- Fī Naẓarīyat al-Ḥajjāj Dirāsāt wa-taṭbīqāt, Ṣūlah, Allāh, Ṭ: 1, Tūnis, Dār Miskīliyānī lil-Nashr wa-al-Tawzī‘, 2011M.
- Madkhal ilá al-khaṭābah, rwbwl, wlyfy tarjamat: Raḍwān al-‘uṣbah, Ṭ: 1, Ḥassān al-Bāhī, al-Dār al-Bayḍā’, al-Maghrib, Afrīqiyā al-Sharq, 2017m.
- Ma‘ānī al-naḥw, al-Sāmarrā’ī, Fāḍil Muḥammad, Ṭ: 1, ‘Ammān, al-Urdun, Dār al-Fikr lil-Ṭibā‘ah wa-al-Nashr wa-al-Tawzī‘, 2000M.
- Mu‘jam al-muṣṭalaḥāt al-balāghīyah wa-taṭawwuruhā, Maṭlūb, Aḥmad, Ṭ: 1, Baghdād, al-‘Irāq, al-Majma‘ al-‘Ilmī al-‘Irāqī, 1987m.
- Naẓarīyat al-musā’alah wa-al-balāghah lmyshāl māyyr muqārabah fī al-uṣūl wa-al-usus wa-al-tamaththulāt, Farḥān, Ni‘mah, majallat Kullīyat al-Tarbiyah al-asāsīyah lil-‘Ulūm al-Tarbawīyah wa-al-insānīyah, Jāmi‘at Bābil, al-‘Irāq, al-mujallad al-rābi‘, al-iṣdār: 43, 2019.
- Naẓarīyat al-Ḥajjāj ‘inda shāyym byrlmān, Banū Hāshim, al-Ḥusayn, Ṭ: 1, Bayrūt, Lubnān, al-Kitāb al-jadīd, 2014m.

❊ ❊ ❊